الفصل الثالث

الحركات الاجتماعية

- معنى الحركة الاجتماعية .
- التفرقة بين الحركة والاتجاهات الاجتماعية والجماعات الضاغطة والأحزاب .
- مراحل نمو الحركة .
- الأيديولوجية والأسطورة .
- التنظيم والبناء .
- الاستراتيجية والتكتيك .
- أنواع الحركات الاجتماعية .
- الثورة .

(أ) معنى الثورة .
(ب) أسبابها .
(ج) دور المثقفين .
(د) نجاح الثورة .
(هـ) الظروف والأزمات التى تواجهها الثورة
(و) الثورة فى مركز السيادة .
(ز) النتيجة .

١ — معنى الحركة الاجتماعية

لقد حظيت الحركات الاجتماعية بقدر قليل من انتباه علماء الاجتماع ، ذلك لأنهم كانوا ينظرون إلى الناس والجماعات على أنهم من صنع التغير الاجتماعى أكثر من أنهم صانعو التغيرات الاجتماعية ، فلقد اعتاد علماء الاجتماع النظر إلى القوى الثقافية بهدف البحث عن ديناميكية الثقافة ، ولم يبحث إلا قليل منهم عن فعل الناس وردود أفعالهم .

ويمكن القول دون تجنى أن نظريات هربرت اسبنسر والداروينية الاجتماعية فى التطور قادت انتباه الاجتماعين بعيداً عن النظر فى المجهودات الواعية المقصودة للجماعات من أجل تغيير مجتمعاتهم ، بل كانت تلك النظريات تعتبر أن مثل هذه المجهودات البشرية ، وخاصة الحركات الثورية ، ليست فقط معوقة ولكن أيضاً ضد التقدم .

كما كان للأسس المحافظة التى وضعها جرهام سمنر (فى الولايات المتحدة) آثاراً مشابهه ، فقد كان سمنر يؤيد التطور الهادىء للمعايير ، وقرر أن الاتجاه نحو التغير بالقوة ليس فقط معوق ولكنه خطر ، وقد وجهه انتباه العلماء فى ذلك الوقت إلى أن الثقافة هى القوة الديناميكية فى عمليات التغير وليست الجماعة ، وأن الثقافة تؤثر فى الجماعات . بدلا من أنها شىء يمكن التغيير فيه من خلال مجهودات البشر .

وحديثاً جداً ، فكرة أن الثقافة هى القوة الديناميكية فى التغير أكثر من الجماعة وصلت ذروتها فى كتابات أوجبرن الذى ساوى بين التغير الثقافى والتغير الاجتماعى ، ويبدو أن مفهوم أوجبرن عن الثقافة كان متأثراً بكتابات الأنثروبولوجيين وخاصة كروبر فى مقاله الفوق عضوى .

وبينما سادت النزعة التطورية بمختلف أنواعها التاريخ المبكر لعلم الاجتماع

لم تحظ الحركات الاجتماعية بمثل هذا الاهتمام ، ذلك لأن الحركات الاجتماعية أمر معقد لم يستسلم بسهولة للدراسات المنهجية ، فذلك المركب المعقد من التفاعل المتبادل الديناميكى المسمى بالحركات الاجتماعية لم يكن أبداً من المواضيع المغرية أو السهل جمع بيانات عنها .

وفى الحقيقة ، (الحركات الاجتماعية هى بالدرجة الأولى دراسة فى التغير الاجتماعى ، كما هى دراسة فى التغير الثقافى . وهى أيضاً دراسة فى تغير النظام الاجتماعى كما هى دراسة فى تغير القيم والمعايير . فالحركات الاجتماعية هى دراسة للجماعات البشرية المكافحة عن وعى لتغيير مجتمعاتهم . فهى ليست دراسة للجماعات الساكنة نسبياً ولا للنظم الاجتماعية الراسخة . ولكنها دراسة للجماعات والنظم الاجتماعية فى عملية البزوغ proceas fo becoming) [1] .

وإن كان يعتبر سوء التكيف الثقافى أمر هام فى التغير . فما هو إلا ظرف بالضرورة يؤدى إلى نشأة المجهودات الجمعية لدى الناس لتغير ثقافتهم . ومن ثم فلا ينظر إلى التغير الثقافى كمتغير تابع ناجم عن متغيرات مستقلة : وليس التغير الاجتماعى ببساطة نتاج انحراف بعض العناصر فى نسق اجتماعى ، كما أنه ليس مجرد مجهودات الناس للتمهيد للتغير . ولا هو علامات ورموز عن التخلف الثقافى أو عدم التوازن أو التفكك الاجتماعى ، ولكن التغير ما هو إلا أحد مظاهر الثقافة ، والحركات الاجتماعية ما هى إلا أحد الأساليب الهامة التى تؤدى إلى ظهور التغير الاجتماعى وتنتج التغير الثقافى .

وهى أيضاً من ناحية أخرى وليدة التغيرات الاجتماعية ، فالحركة

---

(١) Killian : Lwis M. : « Social Movements ». In Hand Book of Modern Sociology. Edit, Faris, R., Rond McNally Com. Chicago 964. p. 427

الاجتماعية هى ظاهرة اجتماعية تنشأ نتيجة لتفاعل عوامل عديدة فى الحقل الاجتماعى ، نتيجة للتغيرات الاجتماعية الحادثة فى المجتمع . فحيث يكون المجتمع ساكناً نسبياً وحياة الجماعة مشبعة طبقاً للقواعد الاجتماعية والتحديدات الثقافية ، فإن معظم الناس فى معظم المواقف الاجتماعية يعملون متطابقين مع السلوك الذى نمطته الأجيال الماضية ، وقدسته ديمومة استعماله عبر السنين الطويلة . ويشغل الأشخاص والجماعات المكانات الملائمة والمنسوبة لهم ويؤدون الأدوار الملقاة على عاتقهم بأسلوب مقبول اجتماعياً . وهكذا يكون الاتفاق بين أعضاء المجتمع حول المصالح الهامة لحياة الجماعة متكاملا بحق ، ومن ثم يسود المجتمع درجة عالية من الاتفاق العام . فالاتفاق العام على القيم والسن الاجتماعية هو جوهر التماسك الاجتماعى ، إذ يكون النظام الاجتماعى الحقيقى ممكناً فقط ، حيث يشارك كل المجتمع مجموعة من القيم وقوانين السلوك . ذلك لا يعنى أن كل القيم لا بد وأن يشارك فيها كل عضو فى المجتمع ، إذ يمكن أن تكون هناك جماعات لها قيم فرعية أى خاصة ، وقوانين سلوكية خاصة ، وتعيش معاً فى مجتمع واحد ، ومع هذا يكون النظام الاجتماعى سليماً ومستقراً ، طالما أن تلك الجماعات تحترم كل منها قيم وأنماط سلوك الأخرى من ناحية ، ومن ناحية أخرى تشارك كل الجماعات فى القيم الأساسية والمعايير الأساسية التى تسود المجتمع ككل . ومن ثم تصبح الرغبات والحاجات والتنظيمات مشبعة خلال المناشط الثقافية المعتادة لجماعاتهم .

ولكن التغيرات الاجتماعية تحدث تغيرات تدريجية شاملة وعامة فى قيم الناس ، ومن ثم يحدث تغير عام فى أفكار الناس ، فيتصدع البناء الاجتماعى المستقر نسبياً . (فبعد نمو الكتابة والنتائج التى تبعتها ، لم يسمح للحضارة أن تظل ساكنة أبداً ، وأصبح التغير مستمراً ، وأتى معه شعوراً لا ينتهى من

الذعر من فقد التقاليد المقدسة ، وتدهور الأخلاقيات ، وفشل الشباب فى احترام الكبار . خلال تلك الفترات وفى الأماكن المتضمنة لتغيرات سريعة استثنائية ، أصبح مألوفاً التنبؤ بانهيارات كاملة)[١] . إذ تعنى التجديدات فى مختلف وجوه الحياة الاجتماعية تغيراً فى طبيعة ونوع العلاقات الاجتماعية بين أعضاء المجتمع ، وتحدث تغيرات فى مكانة وأدوار الأعضاء . وكذلك تصبح أساليب التفكير والعمل القديمة المتوارثة غير ملائمة لهذه المواقف الاجتماعية الجديدة .

وهكذا (إذا تغيرت البيئة المحيطة أو النظام الاجتماعى لدرجة عيمة ، إلى درجة أن الحاجة تتطلب أنواعاً جديدة من السلوك الجمعى ، فالشكل القديم لتنظيم الجماعة اما أن يتصدع أو أن يتحدد فى مجاله وأغراضه . حتى يمكن أن يكتشف مرة أخرى أنماطاً أحسن للتكيف وذلك بتجارب المحاوله والخطأ سواء أكانت بوعى قليل أو كثير من الأفراد)[٢] . إذ أن كثيراً من أعضاء المجتمع يرون أنهم لا يشغلون مكاناتهم التقليدية ولا يؤدون أدوارهم المنسوبة إليهم ، وترى جماعات أخرى أن الدور الذى تؤديه فى المجتمع لا يتناسب مع مركزها ومكانتها فيه ، ذلك يعنى أن المفاهيم التى لدى الناس عن أنفسهم وعن حقوقهم وإمتيازاتهم قد تغيرت .

وهكذا على مدار فترة من الزمن ينمى كثير من الناس نظرة جديدة عما يعتقدونه ، وهم يرسمون نظرة مصنوعة إلى حد كبير من الرغبات والآمال . وعندما يكون لدى أعضاء المجتمع دوافع ورغبات لا يمكن إشباعها بواسطة أشكال الحياة الموجودة ، تنتابهم حالة من القلق ، ذلك راجع إلى رغبتهم

---

(١) Faris Robart E. L. : « Social Disorganizatien » The Ronald press Company, N. Y. 195 p: 566

(٢) Mannhiem. Karl : « From Trail and Error to planning » In The planning of Change, edit., op cit., p. 35

فى العمل وفق مفاهيمهم الجديدة ، ولكن أساليب التفكير والعمل المنمطة والقائمة فى المجتمع بجزاءاتها ومحرماتها تقف حائلاً فى وجههم . ومن ثم ينشأ نوع من عدم الراحة والإحباط وعدم الاطمئنان (هذا التوتر الداخلى ، فى غياب الوسائل المنظمة لصرفه ، سوف يعبر عن نفسه عادة خلال نشاط عشوائى أو عجيب الانتظام ، ويكون هذا علامة خارجية عن التبرم restlessness ويكون النشاط على الأرجح ضال وغير منتظم وينقصه الثبات ، ويشبه بالأخرى التجول غير المحدد . ودخلياً ، النشاط يأخذ على الأرجح شكل التصورات أو التخيلات غير المنتظمة والمشاعر المضطربة)[1]

هذه الأشكال المنبعثة تمثل استجابات لمواقف جديدة ، وتدل على أن بناءاً جديداً يكافح للظهور ، ونظماً اجتماعية جديدة، وكذلك أشكالاً جديدة من الاعتقاد والسلوك ، وأنماط من التوقعات والعلاقات تكون فى مراحل مختلفة من النمو . ومن ثم يحدث اضطراب فى أساليب الفكر والعمل القائمة حيث يكون الأسلوب الآخذ فى النمو يتصارع مع الأساليب القديمة المؤسسة فى المجتمع . (وفى حالة ، الاضطراب لهذه الأساليب المؤسسة للفعل، أو حالة ظهور نزعات جديدة لا يمكن إشباعها بالأحكام الثقافية الموجودة يحتمل أن ينشأ سلوك جمعى أولى)[2]. إذ عادة تكون الجماعات مجبرة على أن تعمل بأساليب غير معتادة ، لأن التغير أفقد المعايير التقليدية قدرتها على الإشباع ، ومن ثم اتضح فسادها وأصبحت سيئة الأثر . فالمعايير السيئة هى تلك التى لا تلائم ظروف الحياة وحاجات المجتمع فى ذلك الوقت[3] .

---

(١) Blumer. Herbert : « Collective Behavior » In Princi ples of Sociolog « Lee, Alfred M. editor. » Colfege Outline Series, Btrnes & Noble, Inc; N. Y. 1964 P. 171

(٢) Ibid., P. 171

(٣) Sumner, W. G. : « folkways » Ginn and Company Propictors Bostcn, U. S. A. P. 99

وهكذا يهجر الناس هذه المعايير نظراً لعدم إشباعها . (وبذهاب عديد من المعايير القديمة يضطر الفرد أن يرتجل كثيراً من أفعاله ، كثير من هذه الارتجالات تأخذ شكل السلوك الجمعى)[١] . ذلك السلوك الجمعى هو نتاج الآثار المتراكمة للاستجابات الجديدة تحاول البحث عن أنماط من التكيف أكثر ملاءمة للمواقف الجديدة ، وفى محاولتها تلك تعمل على إضعاف الأنماط التقليدية ، وتمحو سلطتها، ومن ناحية أخرى تدعو أعضاء المجتمع إلى إعادة النظر فيها . ويتميز هذا النوع من السلوك (بالنمو التلقائى للمعايير والتنظيم الذى يعارض أو يعيد تفسير معايير وتنظيم المجتمع)[٢] . ويحدث ذلك تحت تأثير ضغط يكون عاماً وجميعاً فى كلمات أخرى ، ضغط يكون نتيجة لتفاعل اجتماعى)[٣] . ذلك التفاعل الناشئ من وجود مواقف اجتماعية جديدة دون أن يوجد فى الأنماط الاجتماعية المقررة حلولا لها ، مما يؤدى إلى حالة من الضيق والتبرم من ذلك النظام الاجتماعى الذى لا يتضمن المعايير المناسبة للمواقف الجديدة الناشئة .

ولا يعنى وجود التبرم بين عدد من الأفراد وجود حالة من القلق الاجتماعى (فبدون أن يكون لتبرم الأفراد تنبيهاً متبادلا ومجهوداً مقوياً ، فإنه لا يكون مشاركا أو جمعياً . . . بينما فى حالة **القلق الاجتماعى** ، يكون للتبرم صفة تبادلية ، أى أن إظهاره يوقظ ظرف مشابه للتبرم عند الآخرين ، وهناك

---

(١) Merrill : op. cit.; P. 484

(٢) Turner, R, H. & Killian, L. M. : « Collective Behavior » Englwoop cliffa, Prentice - Hall, Inc. New Jersy 1975 P. 4

(٣) Park; K. E. & Burgess, E. W. : Introduction to the Science of Sociology » Uneviresty of Chicago Priss. Chigaco (2 nd. ed.) 1924 p. 865

يحدث تقوية متبادلة لهذه الحالة عندما يتفاعل الأفراد كل مع الآخر . ويتبع هذا أن القلق الاجتماعى يحتمل وجوده إلى حد كبير حيث الناس قد صار كل منهم حساساً للآخر ، أو جهزوا للدخول رأساً فى وفاق ، وأيضاً حيث يكابدوا معاً إختلال أنماط حياتهم)[1].

هذه الحال من اللااستقرار الاجتماعى أيضاً تأتى بالخوف وعدم الاطمئنان ، إذ أن الاستجابات التى تعلمها أعضاء المجتمع لم تعد مناسبة ، فكثير منهم لا يستطيع أداء الأدوار التى تعلمها . وفى هذه الفترات من القلق الاجتماعى سواء كان قلقا دينياً أو إقتصادياً أو نتيجة لبطالة كثيفة أو استمرار حرب ، فإن التوترات تتزايد وتتضخم حتى يعجز أعداد كبيرة من الناس عن أدوارهم ولا يجدون فى أنماط السلوك التى اعتادوها إشباعاً ، ومن ثم تصبح العشوائية هى صفة السلوك ، ويتحرك الناس بأسلوب ضال بلا هدف ، كما لو كانوا يبحثون أو يتجنبون شيئاً ، ولكن دون أن يعلموا ماهية ذلك الذى يحاولون البحث عنه أو تجنبه. ومن ثم يصبح الناس فى حالة من التوتر شديدة وصعبة ، ويشعرون بدافع قوى للعمل. (هذا الدافع للعمل فى غياب الهدف يقود بالضرورة إلى سلوك عشوائى وغير هادف)[2].

وأيضاً يلتف الأفراد كل حول الآخر بأسلوب عشوائى وغير هادف نتيجة لحالة القلق الاجتماعى المتبادل بينهم ، ومن ثم يصبح الأفراد أكثر حساسية واستجابة كل للآخر ، ويتزايد التجاذب بينهم وتقصر المسافات الاجتماعية ، وتجتاحهم حالة من التفاعل الاجتماعى العالى نتيجة لرد الفعل الدائرى، حيث التنبيه المتبادل يتخذ شكلا دائرياً فيعكس كل فرد للآخر حالة شعوره بالقلق ، ونتيجة لهذا يتكثف هذا الشعور ، حتى أنهم يصبحون

---

(١) Blumer : op, cit.; p. 172

(٢) Ibid. p. 173

أكثر انشغالا كلا بالآخر عن المنبهات الخارجية العادية ، ونتيجة لذلك ينمى كل فرد حصانة ضد معظم النماذج الأخرى والمنبهات التى يستجيب لها فى الحالة العادية .

وهكذا تتغير طبيعة العلاقات الاجتماعية وصفة الروابط الاجتماعية ، فيتزايد تركيز انتباههم كل على الآخر من ناحية ، ومن ناحية أخرى يقل على الأشياء والأحداث التى كانت تعنيهم عادة. هذه الحالة من الالتفاف والانشغال كل بالآخر تزيد من سرعة استجابة بعضهم لبعض مباشرة وبلا تيقظ . هذه الحالة الجديدة تحمل وتدفع أعضاء المجتمع للعمل معاً تحت تأثير مشاعر لم تكن مألوفة بينهم من قبل. فهى عملية اجتماعية تجهز الناس وتحفزهم للعمل معاً بطريقة تلقائية لمواجهة هذا القلق الاجتماعى الذى يولد عند أعضاء المجتمع توقعات غامضة ومبهمة وغير محددة عن مواضيع مشوبة بالخوف والرعب ، مما يولد نوعاً من **الاثارة الجمعية** حيث يصبحون أكثر انشغالا بنموذج معين من السلوك وأكثر خضوعاً للبواعث الموقظة فيهم ، هذه القوة للسلوك المثار جمعياً التى تجبر الفرد على الانتباه إليه ذات أهمية خاصه ، إذ يرجع مدى وقوع الفرد تحت ضبط السلوك المثار جمعياً، إلى المدى الذى ينشغل به الفرد ، إذ أن الكائن البشرى يضبط نفسه فى مواجهة موضوع من الانتباه إلى المدى الذى يكون قادراً أن يبعث فى ذاته تصورات يمكن أن يعارض بها مثل هذا الموضوع من الانتباه ، فالوعى بالذات هو وسيلة لتحصين النفس ضد تأثير الآخرين، لأن به يوقف الفرد استجاباته السريعة المباشرة والتلقائية ، ويضع أحكاماً قبل الفعل ، وهذه الأحكام نابعة من القيم والمعايير المؤسسة فى المجتمع ومن ثم لا تتوافق من أنماط السلوك الجديدة ، وينظر إليها الفرد بشىء من التعجب .

ولكن تحت وطأة الإثارة الجمعية يتحرك الناس بأسلوب عاطفى أكثر ،

وقابلية للسير بعيداً عن أنماط القيم وأساليب التفكير والعمل القائمة فى المجتمع من قبل ، من ثم يؤدى إلى خفض المقاومة الاجتماعية ، وكلما انخفضت المقاومة الاجتماعية كلما اشتدت الإثارة الجمعية وتتسع وتجهز المجال الاجتماعى لعملية **العدوى الاجتماعية** التى تزيد من سرعة وانتشار السلوك المثار جمعيا ، حيث يصبح الوفاق والاستجابات السريعة للأفراد واضحة ، وما هو أكثر أهمية والفاتاً للنظر بالنسبة للعدوى الاجتماعية هو أنها تجذب وتصيب بالعدوى الأفراد الذين كثير منهم كانوا أصلا منفصلين وغير مبالين ومتفرجين وبهذا الأسلوب يكون المسرح الاجتماعى قد أعد من أجل تكوين أشكال جديدة من السلوك لم يسبق أن فكر فيها أعضاء المجتمع ، ومن كان منهم لديه فكرة عنها لم يكن يجرؤ على مباشرتها .

(هذه العلامات توضح الدور الهام للقلق الاجتماعى. فمن ناحية هو رمز لتمزق وتحطيم نظام الحياة ، ومن ناحية أخرى ، أنه يشير إلى إعداد أولى لأشكال جديدة من السلوك الجمعى . وهذه النقطة الأخيرة ذات أهمية خاصة بمفهوم مجازى ، يمكن أن يعتبر القلق الاجتماعى ظرف غير منظم ولا مرتب وجارف ونشط . فالمناشط الرتيبة المعتادة قد تحطمت ، والأفراد قد استسلموا لقابلية التغير . وقد يعتبر القلق الاجتماعى كالبوتقة التى منها تنبعث أشكال جديدة من المناشط المنظمة مثل الحركات الاجتماعية)[1] . (أهمية القلق الاجتماعى أنه يقدم فى الحال تحطيماً الروتين المؤسس وإعداداً لفعل جمعى جديد)[2] . (القلق الاجتماعى أولا يوصل ، ثم يأخذ شكلا فى حركات الجمهرة والجماهير ، وأخيراً يتبلور فى نظم)[3] .

---

(١) Blumer : op., clt. p: 173

(٢) park & Burgess : op cit., P. 866.

(٣) Ibib p. 874

فالحركة الاجتماعية إذن هى وليدة التغيرات التى تراكمت فى مجتمع ما ، ورأى معظم أعضائه أن كثيراً من قيمه ونظمه وتقاليده ، أى معظم أساليب التفكير والعمل فيه أصبحت لاتتلاءم مع التغيرات، فأصابهم القلق الاجتماعى فانبعثوا فى سلوك جمعى متحركين بهدف تغيير هذه الأنماط الاجتماعية لتتلاءم مع تلك التغيرات. (فقيام حركات اجتماعية فى مجتمع هو علامة عدم السرور عن النظام الاجتماعى الموجود)[١]. أى (يمكن النظر إلى الحركات الاجتماعية على أنها مشاريع جمعية لإقامة نظام جديد للحياة . وتكون بدايتها فى ظرف من القلق ، وتشتق قواها الدافعة من ناحية السخط على الشكل الجارى للحياة ومن ناحية أخرى من الرغبات والآمال فى خطة أو نسق جديد للحياة ويصور سير حركة اجتماعية إنبعاث نظام جديد للحياة)[٢] . فالحركات الاجتماعية (هى محاولات بوعى أكثر أو أقل إدراكا كالتغيير المعايير والبناء الاجتماعى والأنماط النظامية والأدوار والمكانات فى مجتمع معين . ولهذا فالحركات الاجتماعية هيئات هامة للتغير الاجتماعى)[٣]. (إن كل حركة اجتماعية ماهى إلا نتيجة وجود سوء تكيف فى المجتمع أو فى جماعة منه من جراء وجود حاجة أساسية غير مشبعة عند الناس)[٤].

---

(١) Heberle; Rudolf . « Social Movements » Appleton Century — Crofts, Inc. N Y 1951 P 454

(٢) Blumer : op cit , P 199

(٣) Merrill : op cit p, 487

(٤) Davis, Jerome : « Contemporary Social Movements The Century com N. Y. 1630 P. 8

٢ — التفرقة بين الحركة والاتجاهات الاجتماعية والجماعات الضاغطة والأحزاب

ولما كان اصطلاح الحركة فى بعض الأحيان يستعمله بعض علماء الاجتماع ليشيروا به إلى الاتجاهات والميول من ناحية ، ومن ناحية أخرى تؤدى الاتجاهات والميول الاجتماعية إلى تغيرات اجتماعية ، كما أن الحركات أيضاً هى عامل هام فى إنتاج الميول والاتجاهات الاجتماعية ، وكذلك قد تكون الحركات الاجتماعية استجابة لتغيرات وجدت فى شكل ميول واتجاهات اجتماعية . هذه العلاقة المتشابكة بين الاتجاهات والميول الاجتماعية وبين الحركات الاجتماعية أدت إلى الخلط فى استعمال اصطلاح الحركة ، فهناك من علماء الاجتماع من يشير إلى حركة ديمقراطية الصناعة ، ويقصدون بها تغيرات معينة فى العلاقات الصناعية بين العمال وأصحاب الأعمال ، وأيضاً يقصدون بها الاتجاهات الناتجة عن سوء تكيف العلاقات بين أصحاب العمل والعمال ، وهى فى الحقيقة اتجاهات تحالفية بين العمال لكسب بعض الحقوق من أصحاب الأعمال .

وإن كانت الاتجاهات الاجتماعية تؤدى إلى تغيرات اجتماعية ولكن كثيراً (من هذه الميول والاتجاهات هى فقط آثار لتجمع لعديد من الأعمال الفردية مثلا الحضرية هى أثر لملايين من الأفراد يتحركون من الريف للمدينة، وميكنة الزراعة ممكنة بدون أى عمل جمعى ، فهى مجرد توطين مناهج فنية معينة لدى عدد كبير من أفراد الفلاحين)[1] . وحقيقة أنه ظهرت حركات اجتماعية كثير فى كثيرة من البلاد فى آسيا وأفريقيا حيث التصنيع قد غير مجتمعات فى أقل من جيل واحد ، ولكنها ليست الحرية التى أعطت النشأة للحركات

---

(١) Heberl : op cit. p. 8 — 9

الاجتماعية ، لأن كثيراً من المجتمعات الأوروبية تحضرت من قرن ولم تقم بها حركات اجتماعية ، ومن ثم فالسبب فى قيام هذه الحركات الاجتماعية فى بلدان آسيا وأفريقيا ليست الاتجاهات الحضرية ، ولكن العامل الذى أدى إلى ذلك هو الهدم الناظم عن التفاعلات الاجتماعية الناتجة من التغير الاجتماعى التى أدت إلى نشأة السلوك الجمعى . ولذلك فالحركات الاجتماعية تتميز عن الميول والاتجاهات الاجتماعية ، بهذا النوع من السلوك الاجتماعى المتماسك مع استمراره .

ولهذا وإن كان كل من الاتجاهات الاجتماعية والحركات الاجتماعية تتعلقان بالظاهرة العامة للتغير الاجتماعى . فإن الميول تعتبر كعمليات . والحركات الاجتماعية كنوع من التجمع . (إن مجرد تشابه المشاعر الحادثة والمتساندة بين عدد كبير من الناس لا تكون حركة . وليس مجرد تقليد العمل الجماهيرى . فالمطلوب هو شعور ومعنى عن توحد جماعة وتماسكها . فنحن ندرك وجود حركة اجتماعية فقط عندما يصبح الأفراد الفاعلين متنبهون لحقيقة أن لديهم مشاعر وأهداف شائعة مشتركة بينهم وعندما يفكرون عن أنفسهم أنهم متحدون كل مع الآخر فى العمل خلال هذه المشاعر ومن أجل هذه الأهداف) [1] .

ولقد أدى هذا التشابك بين الاتجاهات الاجتماعية والحركات الاجتماعية أيضاً إلى التأثير فى دراسة الحركات من ناحية تصنيفها إلى عامة وخاصة كما فعل بلومر فعنده (يعنى بالحركات الاجتماعية العامة الحركات مثل حركة العمال . وحركة الشباب . وحركة السلام . خلفيتها يشكلها ويركبها تغيرات تدريجية شاملة وعامة فى قيم الناس . تغيرات يمكن أن نسميها انجرافات ثقافية drifts Culture أمثلة على هذه التيارات الثقافية فى تاريخنا الحالى هى

---

(١) Ibid; p 7

زيادة قيمة الصحة ، والاعتقاد فى تربية حرة وانتشار الحرية وتحرير المرأة وازدياد رعاية الأطفال)[١] . ويبدو أن بلومر عند حديثه عن الحركات الاجتماعية العامة استعمل الاصطلاح ليشير إلى اتجاهات اجتماعية ، إذ أن الحركات الاجتماعية عند معم علماء الاجتماع تتميز بأن لها تنظيماً وبناءاً بدرجة معينة تختلف باختلاف مراحل نموها ، إنما المهم أنه لها منذ نشأتها كحركة ذلك التنظيم وهذا البناء . إنما بلومر اعتبر الحركات العامة ليس لها بناءاً ولا تنظيماً (فهى حركات تكون غير منظمة ، بلا قادة مؤسسين ولا أعضاء معروفين ، وقليل من التوجيه والضبط ، مثل هذه الحركة كحركة النساء التى لها الهدف العام والغامض عن تحرير المرأة)[٢] . ومن ثم فهو يشير إلى اتجاهات اجتماعية وليس إلى حركات اجتماعية .

ويذهب بلومر إلى أن الحركات الاجتماعية العامة هى التى تعطى النشأة للحركات الاجتماعية الخاصة، أى (تكون الحركة الاجتماعية العامة القاعدة التى منها تنمو الحركات الاجتماعية الخاصة)[٣] . أى أن الاتجاهات الاجتماعية تعطى النشأة للحركات الخاصة . وبلومر فى ذلك يتفق مع هبرل فعنده (الحركة الاجتماعية هى عادة الاستجابة للتغيرات التى وجدت فى شكل الميول والاتجاهات)[٤] .

ولما كانت الحركة الاجتماعية هى عمل جمعى يتضمن بناءاً وتنظيماً ، وهناك تجمعات أخرى ذات بناءاً وتنظيماً من ناحية ، ومن ناحية أخرى تتشابك مع الحركات الاجتماعية وتتداخل معها وذات علاقة قوية بالحركات فى الحياة الواقعية ، تلك هى الجماعات الضاغطة والأحزاب السياسية .

والجماعة الضاغطة هى جماعة منظمة شكلت من أجل متابعة هدف سياسى

---

(١) Blumer :op cit, p 199

(٢) Ibid, p 209

(٣) Ibid, p 202

(٤) Heberl :op cit, p 9

معين محدد، عادة مصلحة خاصة . وهى تحاول خلق رأى عام مؤيد، وتفرض سياستها على أحد الأحزاب السياسية أو أكثر . وتتميز الجماعة الضاغطة عن الحركة الاجتماعية الحقيقية بأن أهدافها محدودة، (فالجماعة الضاغطة لاتهدف إلى تغير عام فى النظام الاجتماعى)[١] .

وكذلك **الاحزاب السياسية** هى تجمعات ذات بناء وتنظيم ، وتتشابك مع والحركات الاجتماعية فى علاقات وثيقة . ولكن الحزب ما هو إلا (جماعة من الناس يعملون معاً فى تماسك فى صراع المنافسة على القوة السياسية)[٢]. ولكن الحركة الاجتماعية لا تتصارع على القوة فى المجتمع الذى تنشأ فيه ، ولكنها تبغى تغيراً اجتماعياً شاملا لأنظمة المجتمع كلها ، ومن ثم فتغيير القوة هو جزء منه . إنما الحزب السياسى قد ينجح فى الوصول إلى مركز القوة فى المجتمع ولكنه لا يقوم بأى تغير اجتماعى . فالحزب السياسى يهدف إلى تأمين مصالح أعضائه ، ولتنفيذ سياسته التى يراها ، ولكن دون التعرض لعملية تغيير جذرى فى نظم المجتمع الرئيسية ، ومن ثم فقد يكون للحزب السياسى أيديولوجيته ، وقد تكون هى بذاتها أيديولوجية الحزب المنافس دون اختلافات كبيرة ولا تمس إطلاقاً النظم الرئيسية فى المجتمع . ولكن الحركات الاجتماعية تكون لها أيديولوجية تخالف بل وتهاجم النظم السياسية والاقتصادية ونظام الحكم القائم فى المجتمع ، وتعتبر الحركة معتقداتها هى الأصلح وما عداها أكاذيب باطلة .

كما أن الحزب السياسى ينشأ فى جسم سياسى أى فى داخل دولة ، ولكن الحركة الاجتماعية لا تحتاج أن تكون قاصرة على دولة معينة أو مجتمع واحد بل قد تمتد لتشمل أكبر رقعة ممكنة من العالم ، كالحركة الإسلامية .

---

(١) Ibid. op cit, P 9

(٢) Schumpeter, Joseph : « Capitalism, Socialism and Democracy » Harper & Brothers, 1942 P 283

ولا أعنى بذلك أن الحركات الاجتماعية دائماً فى صراع مع الأحزاب السياسية القائمة فى المجتمع ، فإن كانت فى كثير من الحالات تعارض الحركات الاجتماعية الأحزاب الموجودة ، فإن فى حالات أخرى وكثيرة أيضاً ، وخاصة فى المجتمع المعاصر حيث أصبحت الحياة السياسية تمارس من خلال الأحزاب السياسية وأصبحت الأخيرة ظاهرة مألوفة ، أو بمعنى آخر أن الأحزاب السياسية أصبحت هى الإطار الاجتماعى للعمل السياسى فى كثير من الدول ، ومن ثم فإنه فى المجتمعات المعاصرة كثير من الحركات الاجتماعية تكون ذات علاقات متشابكة مع الأحزاب السياسية الموجودة مثل علاقات تعاون فى العمل ، أو قد تتضمن الحركة حزباً أو أكثر . ولا تقتصر الحركة فى كثير من الأحيان على هذه الأحزاب السياسية ، ولكن الحركات الاجتماعية الكبرى تتضمن إلى جانب التنظيمات السياسية، تنظيمات أخرى مثل اتحادات العمال واتحادات الفلاحين واتحادات الطلبة .

٣ — مراحل نمو الحركة والعمليات التى تتضمنها

ولقد اختلف علماء الاجتماع حول المراحل التى تتخذها الحركة الاجتماعية والعمليات الاجتماعية التى تنتظمها الحركة أثناء نموها ، فمنهم من جعل هذه المراحل اثنتين . والحركة عندهم فى مرحلتها الأولى تكون تلقائية لا تتميز إلا بشىء قليل جداً من التنظيم ، وتكون الأدوار فى هذه المرحلة غير واضحة ، وأهدافها لم تتبلور بعد . أما المرحلة الثانية من حياة الحركة فتتميز بالتنظيم الواضح والبناء الاجتماعى الذى حددت فيه الأدوار. وتكون أيديولوجية الحركة قد نمت ومن ثم تحددت أهدافها واتخذت الاستراتيجية والتكتيك المناسبين لتحقيق هذه الأهداف . وخير من يمثل هذا الاتجاه هو جيروم دافيس Jerome Davis فهو يعتبر أن الحركة (تبتدىء بوجود حاجة محسوسة لدى الأفراد يعبرون عنها أمام بعضهم البعض ومن ثم التحريض والإثارة والدعاية فالشعور الاجتماعى بالحاجة ، ومن ثم التنظيم. فالمرحلة المنتظمة التى تتميز بتمخض الحركة عن تكوين منظمات لها ، ومن ثم نشأة وظهور الوجه البيروقراطى لهذا التنظيم ، ومن بعدها جمود هذا التنظيم وعدم مرونته)[١]. ولكن داوسون وجيتز Dawson & Gettys يريان (أن الحركة تمر بأربع مراحل أثناء نموها ، وتبتدىء بالقلق الاجتماعى والاضطراب وعدم الاستقرار ، ثم بعد ذلك مرحلة الإثارة الجمعية ، ثم المرحلة التشكيلية وأخيراً المرحلة المنتظمة) .[٢] وكل مرحلة . عندهما ، تتميز بخصائص متمايزة وأهداف معينة ونوع من القيادة، ووسائل وأساليب مختلفة ، ودرجة من التنظيم تتخذها الحركة فى كل مرحلة من مراحل نموها[٣].

---

(١) Davis, J : op cit, P P 8 — 9

(٢) Dawson; C Gettys, W : An Intreeuction to Sociology Rev ed, the Ronald Prees co N Y 1935 P 787

(٣) Ibid p 709 —710

ويتفق بلومر مع ماذهب إليه داوسون وجيتز من أن مراحل نمو الحركة أربع أيضا (تلك هى مراحل القلق الاجتماعى . ومرحلة الإثارة الشعبية ومرحلة التشكيل ، والمرحلة التى تصبح فيها نظاما)[١].

وعلى أى حال فما أحب أن أشير إليه أن هذه التقسيمات ماهى إلا ألوانا من الدراسات للعمليات الاجتماعية التى تتخذها الحركة فى مراحل نموها ، وأنه لايمكن أن يتبادر للذهن أن هناك فواصل وحدود بين هذه المراحل ، إذ أن الحركة تنتقل من مرحلة لمرحلة بطريقة غير مشعور بها .

وغنى عن البيان أن نمو الحركة هى عملية تفاعل بين الحركة والبيئة الاجتماعية التى تنشأ فيها، ومن ثم فليس كل الحركات بالضرورة تأخذ نفس وشكل المراحل فى كل مجتمع من المجتمعات . ولكنها سواء فى مراحل نموها، أو فى بنائها وتنظيمها أو الأفراد والجماعات التى تنتظم فى صفوفها ، والقادة التى تبرزهم ، يرجع إلى الظروف الاجتماعية المحيطة بالحركة .

والحركة التى تتميز بالمرونة والتى يكتب لها النجاح هى التى تستطيع أن تواثم بينها وبين هذه الظروف الاجتماعية، أما الحركة التى لاتستطيع أن تتكيف مع هذه الظروف الاجتماعية أثناء نموها ، فإنها تذبل وتموت ، شأنها فى ذلك شأن أى ظاهرة اجتماعية لاتعبر عن مقتضيات الظروف الاجتماعية فإنها تصاب بالموت قبل تمام اكتمالها .

كما أن الوظيفة الاجتماعية للحركة هى إعادة التوازن إلى الحياة الاجتماعية التى اختل توازنها، ومن ثم فلابد وأن تكون متكيفة مع الظروف الاجتماعية المحيطة بها لتحقيق أهدافها ، (إذ أن كل حركة اجتماعية ماهى إلا نتيجة وجود سوء تكيف فى المجتمع أو فى جماعة منه من جراء وجود حاجة أساسية غير

---

(١) Blumer : op cit P 203

مشبعة عند الناس)[١] . ومن ثم فإن الحركة الاجتماعية ماهى إلا مجموعة من العمليات الاجتماعية تهدف إلى إزالة اللاتوازن وتحقيق التوازن بعد أن أصاب المجتمع الخلل نتيجة عدم وفاء النظم الاجتماعية الموجودة بإشباع هذه الحاجات الأساسية الناجمة عن التجديدات الحادثة فى المجتمع ، الى جعلت النظم بعد أن كانت تعمل بكفاءة أصبحت غير مشبعة .

ومن ثم فالنواة الأولى أو المرحلة الأولى لنمو أى حركة تقبع فى هذه الحالة من اللاتوازن وعدم الإشباع ، حيث يكون أعضاء المجتمع فى حالة تبرم ويسلكون بأسلوب عشوائى ، وتعمهم حالة من القلق الاجتماعى ،ومن ثم يكونوا سريعى التأثر والحساسية للجاذبية والاستهواءات التى تنفث عن استيائهم . (فعندها تكون عناصر ودافع التحول حاضرة لدى السكان بدرجة كافية من الكثافة ، وواسعة الانتشار وموزعة تماماً ، تصبح هذه مظاهر للتوترات)[٢] .

ومن ثم تكون عملية الإثارة ذات أثر فعال ودور هام فى هذه المرحلة المبكرة من الحركة . فالإثارة تعتبر أهم الوسائل لتحريك الناس ، وتوقظ فيهم بواعث جديدة وأفكار جديدة من شأنها زيادة سخطهم وتبرمهم ، فهى تعمل على توجيه التبرم وتركيزه حول مواضيع معينة ، وعادة تكون مواطن الضعف فى النظم القائمة ، وإثارة المشاعر حولها وإبراز التمايز غير العادل والظلم الاجتماعى . إذ يكون الناس عادة منساقون لأداء أدوارهم رغم إيلامها وعدم إشباعها ، بحكم القصور الذاتى للنظم التى أصبحت غير متكيفة مع الظروف الاجتماعى المتغيرة . ومن ثم يكون الموقف الاجتماعى مشحوناً بالآلام والاعتراض .

ولهذا فالإثارة تعمل على تنبيه أعضاء المجتمع لإعادة فحص أساليب

---

(١) Davis op cit P 8

(٢) Prsons op cit P 521

التفكير والعمل التى درجوا عليها . ولذلك فالإثارة تعمل على خلخلة قبضة القيم والتقاليد والعادات ، وبذلك تحطم الأساليب القديمة فى التفكير والعمل ومن ثم يندفع الناس للبحث عن أساليب جديدة فى التفكير والعمل . وهنا تعمل الإثارة على توجيه تلك التوترات التى أصبح الناس يعانونها فعلا ، وتركيزها حول مفاهيم جديدة عن مراكز الناس وأدوارهم ومكانتهم ، فيروا التناقض واضحا أمام أعينهم. (فوظيفة الإثارة ، جزئياً تزحزح وتثير الناس ومن ثم تحررهم للتحرك فى اتجاهات جديدة . وأكثر تخصصاً ، إنها تعمل على تغيير آراء الناس عن أنفسهم وحقوقهم وواجباتهم ، وتتضمن مثل هذه المفاهيم الجديدة معتقدات عما يستحقه الفرد من امتيازات وحقوق ، ومن هذه المعتقدات يستمد ويقدم القوة الدافعة للحركة الاجتماعية . فالإثارة ، كوسيلة لزرع هذه المفاهيم الجديدة بين الناس تصبح ، بهذه الطريقة ، ذات أهمية أساسية لنجاح الحركة الاجتماعية)[1] ، إذ تعمل على إيقاظ الناس وهكذا تجعلهم مجندين للحركة .

ومن ثم تحدث إثارة الشعب[2] حيث يلتف الناس حول بعضهم وتنشط عملية رد الفعل الدائرى فى تقريب المسافات الاجتماعية بين المثارين من ناحية ، ومن ناحية أخرى تضاعف من هياجهم وسخطهم، إذ أنه (إذا تجمع عدد من الأشخاص مع بعض ، وخاصة إذا كانوا متحمسين بنفس المشاعر أو منبهين بنفس المصلحة أو الاهتمام ، ينقلون الدافع كل إلى الآخر مما يجعل كل البواعث والدوافع تزداد إلى معدل عال جداً ، فى كلمات أخرى ، إنها حقيقة مسلم بها أن كل الحالات العقلية والعواطف تزداد زيادة عظيمة بالقوة بواسطة انتقالها من رجل لرجل . وخاصة إذا كانوا ملتفين بمفهوم من

---

(١) Blamer op cit p 205

(٢) Ibid p 263

الاجماع والاتفاق والتعاون بين عدد كبير لهم مشاعر عامة أو اهتمام عام)[١] .

ولكن هذه عملية لا تكون عشوائية تماماً أو بلا هدف . (فمثل هذا التوتر ومظاهره لا يكون عشوائياً بالنسبة لبناء النسق الاجتماعى الذى يحدث فيه ، ولكن يصبح تحولات من أنماط . معينة منتظمة ومن رموز متحدة بهذه الأنماط ولهذا لا يكون موزعاً عشوائياً فى النسق الاجتماعى ، ولكن دوافع التحول سوف تتجمع حول نقطة معينة من التوتر)[٢] . إذ ينبعث من التوتر آراء أكثر تحديداً ودقة عن سبب سوء التكيف الاجتماعى والظلم الاجتماعى الذى يعانونه . وعما يجب عمله فى سبيل التغيير الاجتماعى .

فالإثارة هى فقط وسيلة لإيقاظ اهتمام الناس ومن ثم تجعلهم يشاركون فى الحركة . فالإثارة تخدم فى تجنيد الأعضاء . وتعطى المحركات الأولية . وتعطى بعض الاتجاه ، ولكن بذاتها لا تستطيع إطلاقاً تنظيم أو تثبيت جركة . إذ أن (المناشط الجمعية المؤسسة على مجرد الإثارة تكون مشتتة ومفككة وقصيرة الحياة . فلا بد من دخول ميكانزمات أخرى لتعطى التماسك والاستمرار للحركة الاجتماعية . أحد هؤلاء الميكانزمات هو نمو روح الجماعة)[٣] .

يمكن اعتبار روح الجماعة كمنظم للمشاعر من أجل الحركة . (وهى فى ذاتها فهم وإحساس الناس عن انتمائهم إلى بعض وعن كونهم متوحدين كل مع الآخر فى تعهد تام قد ركب وشكل أساسه حالة من الوفاق)[٤] . وتعمل حالة الوفاق هذه على تنمية مشاعر الانتماء والتقارب حيث يكون لدى الناس

---

(١) Sumner ; op. cit., P. 200
(٢) persons : op. cit p 521
(٣) Blumer op cit p 258
(٤) Ibid p 205

فهماً عن المشاركة فى تجربة عامة وتشكيل جماعة مختارة . ومن ثم تتشكل منهم جماعة داخلية ، ويصبح ماعداهم جماعة خارجية (وأعضاء الجماعة الداخلية هم الذين يشاركون فى الحركة ولهذا فهم فى الجانب الصحيح، وأعضاء الجماعة الخارجية هم الذين يعارضون الحركة ولذلك فهم فى الجانب الخطأ)[١].

وهكذا تنمو بين أعضاء جماعة الحركة مشاعر الجماعة الداخلية من ولاء وإخلاص ، وينظرون إلى الجماعة الخارجية على أنها عدوة لهم وأنها ذات مبادىء آثمة . ويشعر أعضاء الحركة أن الجماعة الخارجية تهاجم القيم التى يتمسكون بها ومن ثم فإن الجماعة الداخلية لا تشعر فقط أن قيمهم هى الأصوب ولكن عليهم مسئولية هامة ، وهى الدفاع وحفظ وصيانة قيمهم الجديدة التى تضاد القيم القائمة فى المجتمع .

واعتقاد الجماعة الداخلية أى أعضاء الحركة بأن الحركة عورضت رغم صواب ما تدعو إليه يضاعف لدى أعضاء الحركة الإحساس بالظلم الاجتماعى من ناحية ، ومن ناحية أخرى يعمل على شدة تماسك أعضاء الحركة . إذ أن (كل جماعة تنعش كبرياءها وعزتها وتؤيد تفوقها وتمدح ديانتها ، وتنظر باحتقار إلى الخارجيين . وتعتقد كل جماعة أن أساليبها الشعبية هى الوحيدة والسليمة ، وإذا لاحظت أن الجماعات الأخرى لها أساليب شعبية أخرى فهى تستحق احتقارها)[٢] .

فإذا ما تمت روح الجماعة يشعر كل عضو من أعضاء الجماعة الداخلية فى حضور الآخرين بالراحة والصداقة والأخوة . ومن ثم يختفى الإحساس بالغربة الذى يتميز به عدد كبير من أعضاء الحركات الاجتماعية ، إذ أن الحركات الاجتماعية كثيراً ما تتضمن (الأشخاص المحبطون والغرباء ، فقد

---

(١) Merrill : op. cit., P. 465

(٢) Sumner : op. cit· p 13

يكونون مقتلعين فيزيقياً بتركهم الأرض وذهابهم إلى المدينة بحثاً عن العمل والمغامرة. وقد يكونون مقتلعين معنوياً، بفقدهم الاتصال بالأسرة والأصدقاء فعالمهم قد تحول إلى ذرات وشظايا واضطراب، ويصبحون مستعدين للانضمام لحركة اجتماعية، التى سوف تعطيهم معنى الانتماء)[١]. كما (أن الاتحاد فى جماعة متماسكة يتيح للدوافع الإنحرافية الإفلات من جزء كبير من الجزاءات فى التفاعل الاجتماعى العادى، فطالما أن الأعضاء كل منهم متحد بدرجة كبيرة مع الآخر، ذلك يقوى كل منهم بتقديم بديل لتوقعات الأنا)[٢]. وهكذا يميل سلوك الفرد إلى تحرير سلوك الآخرين بدلا من الميل إلى حد أو كبت هذا السلوك. (مثل هذه الظروف من الإحساس بالمشاكة المتبادلة والاستجابات الواضحة العلنية تؤدى إلى السلوك المتماسك)[٣].

ومن ثم تصبح قيمة اتحاد غير رسمى على أسس الزمالة أمر حيوى للحركة وهام بالنسبة لنمو الروح المعنوية. فحيث يستطيع الناس التلاقى غير الرسمى، يكون لديهم الفرصة لتوثيق العلاقات الاجتماعية بينهم. ومن ثم يصبحون فى حالة أحسن ليؤدى كل دور الآخر وبلا تعمد، ويشارك كل الآخر فى خبراته. ويبدو أنه فى مثل هذه العلاقات، أعضاء الحركة بلاوعى يتمثلون فى أنفسهم الشعارات والاتجاهات وقيم وفلسفة الحياة وينقلها كل للآخر، (وهكذا نجد فى الحركات الاجتماعية الانبعاث والاستعمال لعديد من أنواع الاتحادات غير الرسمية والخاصة بعامة الشعب. والغناء والرقص والنزهات والنكت واللهو، والمحادثات غير الرسمية الودية، هى إشارات وتدبيرات هامة فى الحركة الاجتماعية، يحصل خلالها الفرد على إحساس بالمكانة وإحساس بالقبول والود الاجتماعى، بدلا من الوحدة والاغتراب

---

(١) Merrill : op. cit p 490

(٢) Parsons: op. cit, p. 522

(٣) Blumer op. cit p 206

الشخصى الذى كان من قبل)[١] . والنتيجة النهائية تكون تنمية تعاطف عام وإحساس بالانتماء والإخلاص الذى يساهم كثيراً فى تماسك الحركة الاجتماعية .

وأيضاً لتنمية روح الجماعة ، تلجأ الحركة إلى ما أسماه بلومر ساوك طقسى Ceemonial behavior . (قيمة المقابلات الجماهيرية والاجتماعات والاستعراضات والمظاهرات الكبيرة والحفلات التذكارية ، أنها ذات جاذبية دائماً لأولئك الواثقين فى نمو الحركة اجتماعية ، وتأتى القيمة من التجمع الكبير ، ذلك يعنى التأييد الواسع الذى يمارسه المشارك)[٢] . إذ تنعكس قوة التجمع على العضو المشارك فى الحركة ، فهو يرى فى كبر حجم الجماعة المنتمى إليها وقوتها ، كبراً لحجم شخصيته وقوتها ، أى يمارس العضو شعور تضخم الشخصية . (فعندما يأتى هذا الشعور — تمدد الشخصية — ليتوحد مع الحركة ، فهو يصنع روح الجماعة)[٣].

كما أن الرموز التى تمارس فى هذه الاحتفالات مثل النداءات المعينة أو الصيحات العدائية والأغانى والأناشيد تؤدى إلى تنمية مشاعر التوحد .(فى الزمن الحديث أجهزة الإيحاء فى اللغة وليست فى الصور أو الحفر أو فى التمثيليات الأخلاقية أو أى صورة مرئية . فالشعارات Wachwods والتعقيبات catchwards والكنايات epitheis هى الوسائل الحديثة . فهناك كلمات تستعمل عادة كما لو أن معانيها من البساطة والوضوح حتى أنها لا تحتاج إلى تحديد على الإطلاق)[٤] . أما الشعار فهو (يلخص سياسة الفرد ومذهبه ونظرته فى موضوع ما . قد تكون شرعية حقيقية ومقيدة. ولكن

---

(١) Ibid, P, 207

(٢) Ibid.: P. 267

(٣) Ibid., oP. 208

(٤) Sumer,P.cti.n oP. 176

الشعارات تتغير معانيها بسهولة ، وتأخذ متضمنات أجنبية أو إيحاءات مخادعة . . . وتستعمل التعقيبات عادة لإثارة الرغبة)[١]. فهذه الرموز تعمل على تغذية مشاعر التوحد والتعاطف العام وتعمل على تجديد الحياة باستمرار، وتجدد أيضاً قوى هذه المشاعر المتبادلة بين أعضاء الحركة .

وتتخذ الحركات الاجتماعية من الحوادث سواء المناسبات الوطنية أو حادثة تقع لعضو منها ، مناسبة لإقامة احتفالات تقوى بها المشاعر بين أعضائها ، فهى من ناحية تزيد من تفاعل الرموز العاطفية بين أعضائها، والأهم أنها تركز فى مشاعرهم وتمزج معانى قوة التجمع وتمزج وجودها بعواطفهم . (فالحادثه المحتفل بها نفسها فى النهاية تعقل فى شىء أكثر من مجرد حادثة ، فهى تصبح رمزاً ، عن تحرر الرجل من الخطيئة ، عن حرية البلاد أو الديموقراطية . وكونها صارت معقله ، سوف تتحد مع العواطف الجارية السائدة فى المجتمع . وتكتسب معنى اعتقادى مختلف بعض الشىء عن تلك المتصلة بالحادثة الأصلية)[٢]. ذلك بالإضافة إلى أنه فى مثل هذه الاحتفالات تنشد الأناشيد المعبرة عن عقيدة الحركة فتعمل على خلخلة القيم القديمة ، وتجلجل فيها الهتافات العدائية ضد الجماعة الخارجية فتزيد التماسك فى الجماعة الداخلية ، ويستخدم فيها الشعارات والتعقيبات ومن ثم يزداد ترميز هذه الأشياء عاطفياً للمشاعر حول الحركة ، ونتيجة كل ذلك العمل هو تقوية الروح الجمعية .

وهكذا يمكن النظر إلى روح الجماعة ، كمنظمة لمشاعر الجماعة sn arganization of group feeling ، ومن ثم كشكل من حماس الجماعة فهى تعطى الحياة للحركة ، ولكن كمهيج فقط تكون غير مناسبة لنمو الحركة،

---

(١) Ibid P. 179

(٢) Hughes, E. C : « Soecial Instiltiuns » In Principlis of Sociology : Edit. Lee, op. ict.,P. 244

لهذا فمجرد الاعتماد على روح الجماعة ليس كافياً . (فالحركة التى تعتمد كلية على روح الجماعة تشبه عادة الفورة ويحتمل أن تنهار فى مواجهة الأزمات الحقة ، طالما أن الولاء الذى تتطلبه يكون مؤسساً فقط على الحماس المشتعل ، فإنها محتمل أن تزول بانهيار مثل هذا الحماس ، ولهذا للنجاح ، وخاصة فى وجه المعارضة لابد للحركة أن تحصل على ولاء أكثر ثباتاً ومقاومة . ذلك تصل إليه عن طريق تنمية الحالة المعنوية Moral)[1] .

وسبيل الحركات الاجتماعية إلى تنمية الحالة المعنوية ، هو تكوين مجموعة جديدة من المعتقدات تعمل على (تنمية اتجاه طائفى sectarian attitude وإيمان دينى)[2] . (التنظيم لثقافة فرعية لجماعة أو حركة ، يجعلها من الممكن أن تفجر الدوافع التحولية الكامنة نحو النماذج المطلوبة فى الاقسام الأخرى من السكان)[3] . وفتركب هذه الثقافة الفرعية للحركة ، أو هذه المجموعة من المعتقدات ، من اعتقاد فى صحة هدف الحركة ، وأن تحقيق هذا الهدف سوف يؤدى إلى حالة من السعادة ، إذ أن نجاح الحركة يعنى استئصال الشرور والآثام ، وكل أنواع الظلم الاجتماعى ، وتحل العدالة الاجتماعية .

ومن ثم يصبح هذا الهدف ذا قيمة لا تقدر ، وهكذا يترسب فى وعى أعضاء الحركة ثقة بالغة فى عدالة قضيتهم وفى أنفسهم. ومن ثم ينشأ الاعتقاد بأنه طالما قضيتهم عادلة ، فإن النجاح مؤكد . وهكذا يؤمن أعضاء الحركة بأن النجاح أمر مسلم به وستصل إليه الحركة مهما كانت العقابات ، ومهما كان الكفاح مريراً ، إذ أن نجاحها أمر حيوى لصلاح العالم وتجديده ، وأنها

---

(١) Blumer : op. cit., P. 208

(٢) Ibid., P. 209

(٣) Parsons, op. cit., P 522

تمثل أعلى القيم فى العالم . ومن ثم يتولد الاعتقاد بأن الحركة معبئة برسالة قدسية لتخليص هذا العالم من شروره . وهكذا ينشأ فى الحركة عبادة قديس الذى يمثله قائد الحركة وأعوانه ، ويصبحوا هم وصورهم وكلماتهم رموزاً قدسية للحركة ، بل تتكون من كلماتهم وكتاباتهم أدب مقدس ، ودور هذا الأدب المقدس يتركز فى أعطاء اعتقاد دينى للحركة .

كما أن للأسطورة التى تتضمنها أيديولوجية الحركة أهمية كبرى فى نمو الحالة المعنوية فى الحركة الاجتماعية (فإنه خلال هذه الأساطير ، يتم أعضاء الحركة الرسوخ القاطع لمعتقداتهم ، وينشدون تبرير أعمالهم لبقية العالم)[١].

---

(١) Blumer, op cit., P. 210

تلك كانت مراحل نمو الحركة ، وفى أثناء هذا النمو تنمى الحركة الاجتماعية أيديولوجيتها ، إذ (بدون أيديولوجية فإن الحركة الاجتماعية سوف تتجمع فى أسلوب غير مؤكد ولا تكاد تستطيع المحافظة على نفسها فى مواجهة المعارضة من الجماعات الخارجية)[١] . ولهذا (تعمل كل حركة على تنمية بحوث وعقائد خاصة بها ، وتؤثر هذه البحوث والعقائد والأفكار فى الانتاج الفكرى للمجتمع كله كلما قويت واشتدت الحركة)[٢] . (فالأيديولوجيا إذن هى نسق من المعتقدات يتمسك به بصفه عامة أعضاء تجمع ، أى مجتمع ، أو تجمع فرعى لمجتمع – شاملة حركة مغايرة للثقافة الرئيسية للمجتمع – فهى نسق من الأفكار موجه نحو التكامل للتجمع ، بواسطة تفسير الطبيعة العملية للتجمع والموقف الموضوع فيه ، والعمليات التى نمت إلى حالة معينة ، والأهداف الموجه إليها أعضائها جميعاً ، وعلاقاتهم بمسار الأحداث مستقبلا)[٣] . إذ أن (الذين يتحدون من الحركات الاجتماعية لمدة طويلة يميلون إلى تنمية اتجاهات متشابهة نحو مكاناتهم وأدوارهم . تنمو بعض هذه الاتجاهات تلقائياً ، بينما أخرى تغرسها عن قصد هيئات التربية فى الحركة ويكتسب كل عضو كثير من وجهات النظر العامة بسبب مشاركته فى مناشط الحركة . وينعكس العالم الداخلى للفرد على عالمه الخارجى مع تحديداته وآماله ومتطلعاته ومعاييره . الكمية الكلية للعناصر فى هذا العالم العقلى لجماعة معينة ، أو طبقة أو حركة يعرف على أنه أيديولوجية)[٤] .

---

(١) Ipid; P: 210

(٢) Dawson & Gettys : op. cit, P. 724

(٣) parsnns op. cit, P. 349

(٤) Mannheim, karl : Ideology and Utopia kegan Paul Trench; Trubuer & co : LTD; Lqndon; 1940

فالأيديولوجية هى (المركب الكلى للأفكار والنظريات والعقائد والقيم والمبادىء الاستراتيجية والتكتيكية التى تميز الحركة . نحن نسمى هذا المركب المقدر أيديولوجية الحركة)[١] .

ويوضح بلومر هذا المركب المعقد ، (بأن أيديولوجية الحركة تشتمل على مادة من المذهب والمعتقدات والأساطير . وأكثر خصوصية ، يبدو أنها تشتمل على الآتى : أولا — بيان عن الهدف والغرض ووعود الحركة ، ثانياً : مجموعة من النقد والاتهام للبناء الموجود الذى تهاجمه الحركة وتبحث عن تغييره ، ثالثاً : حجج من مذهب دفاعى يخدم كتبرير للحركة وأهدافها ، رابعاً : مجموعة من المعتقدات تتعامل من السياسات والتكتيكات والعمليات العملية للحركة ، خامساً : أساطير الحركة)[٢] .

وغنى عن البيان أن الأيديولوجية تعتبر من أهم وسائل الحركة الاجتماعية فى نشر ثقافتها الخاصة ، ومن ثم فى إجراء عمليات التغيير فى اتجاهات الرأى العام . إذ باتجاه الأيديولوجية إلى نقد واتهام البناء الاجتماعى الموجود ، تعمل على خلخلة قبضة العادات والتقاليد والقيم وسائر أساليب التفكير والعمل عند أعضاء الحركة خاصة ، وعند كل أعضاء المجتمع عامة . إذ أن الهجوم الذى تشنه على تلك النظم يعمل على إزالة قدسيتها ويظهر أنها قابلة للانثلام ، وأن ما كان يعتقد الناس أنه ثابت غير قابل للنقد ، أصبح فساده واضحاً ، وبهذا تعمل الأيديولوجية على تركيز الإحساس لدى أعضائها خاصة وأعضاء المجتمع عامة ، بفساد هذه المعايير وعدم توافقها مع طبيعة الظروف الاجتماعية التى تعمل فيها ، وأن استمرارها من شأنه تراكم الأخطاء والمظالم الاجتماعية .

---

(١) Heber, op. cit; P: 23 — 24

(٢) Blamer. op. cit: op: 210

ولا تتوقف الأيديولوجية عند حد مهاجمة النظم القائمة ، ولكن تقدم تفسيرات وتبريرات لهجومها هذا ، وتعمل هذه التبريرات على تهيئة المناخ الاجتماعي وإعداده لأهداف الحركة التي تعلنها أيديولوجيتها ، وأكثر من ذلك (يهتم أعضاء الحركة الاجتماعية بتقديم تصور مقبول اجتماعياً . فطالما أن الحركة الاجتماعية تنمو في داخل محتوى مجتمع تعمل على تغييره ، وطالما أن أعضاء الحركة هم نتاج هذا المجتمع ، فلا بد للحركة أن توفق بين قيمها وبين قيم المجتمع الكبير ، مهما كانت تبدو ثوريتها . ومن ثم تتجه الحركة لتنمية قيم جذابة واضحة تقدم لكل من أعضائها وغير أعضائها، والتي تخلف الحركة بوشاح من المثالية والغيرية)[١]. و (تعقل الأيديولوجية اختيارات القيم ، أي إنها تعطي أسباباً عن لماذا أحد الاختيارات يفضل عن الآخر ، وعن لماذا هذا أصلح وأوفق)[٢] . إذ من الواضح أن الأهداف التي تعلنها الحركة وتبريراتها ، هي معرضة للنقد من الجماعات الخارجية، التي ليست لديها مصالح في إحداث التغير. ومن ثم من المهم أن تتضمن أيديولوجية الحركة مناقشات وتبريرات لهذا الهجوم تسلح بها أعضائها عند هذا النقد من ناحية ، ومن ناحية أخرى تفتح أمام أعضائها فرصة نقد النظم الموجودة وفحص مدى صلاحيتها ، فإذا أصبح لدى أعضاء الحركة وغيرهم القدرة على مناقشة نظمهم، فإنهم يكونون قد خطوا خطوات ثابتة نحو قبول بل إجراء تغيرات هامة في مجرى حياتهم الاجتماعية . (فإن معظم النقط المؤثرة في التاريخ تأتي عندما تصبح البشرية لديها القدرة على اختبار نظمها الاجتماعية بطريقة مقصودة ، وتعمل على تكييفها لمقتضيات الحاجات الموجودة)[٣].

إن الأيديولوجية بذلك لاتهدم نسقاً من المعتقدات والنظم فقط ، بل

---

(١) Killian. oq cit. P 435

(٢) Parsons. cit. P. 351

(٣) Barnes: op cit: P: 38

تضع بين أيدى أعضائها نسقاً آخر من المعتقدات يلتزمون به ويرون فيه ، ليس فقط إزالة الغمة والظلم الاجتماعى الجاثم على صدورهم ، بل تحقيق آمالهم وتطلعاتهم ، ومن ثم يلتزمون به، (فى حالة الأيديولوجية ، لابد وأن يكون هناك التزام بقبول عقائدها كأساس للعمل . ولابد وأن تكون متضمنة لفكرة أن رفاهية المجتمع معلق على إنجاز نسق المعتقدات وليس فقط الحصول على هدف خاص)[١]. ويرى بارسونز أن هذا الالتزام يأتى من إحساس أعضاء المجتمع أن هذا النسق من المعتقدات لا يؤدى فقط إلى رفاهية المجتمع بل إلى تكامله أيضاً . لهذا التمسك بالأيديولوجية يكمن فى إحساس أعضاء الحركة باتجاهها نحو تكامل المجتمع . (ولا نعنى بذلك أن الفاعل الذى قبل ورضى بنسق الإعتقاد يحتاج أن يكون لديه نظرية سفسطائية عما يؤدى لتكامل التجمع ، ولكن فقط أن يشعر أن رفاهية الجماعة متوقفة على أن يظل نسق المعتقدات وإنجازاته فى العمل . ومن ثم يمكن رؤية أن نسق الاعتقاد المتمسك به ، لابد فى الحقيقة أن يكون حائزاً على أهمية تكاملية للتجمع)[٢] .

الأيديولوجية إذن هى مركب عقلى معقد ، يتركب جزئياً من أهداف عقلية وجزئياً من العواطف والأحلام والتطلعات . (هذه الأيديولوجية غالبا ما تكون ذات مجريين . فى المكان الأول ، كثير منها يكون بارع وعلمى . هذا الشكل الذى فيه نماها مفكرو الحركة ، ومحتمل أن تتركب من مؤلفات محكمة ذات صفة تجريدية وعالية المنطق . إنها عادة تنمو فى استجابة لنقد المفكرين الخارجيين ، وتبحث عن كسب لمعتقداتها وأفكارها ومركز دفاعى ومحترم فى هذا العالم ذى القيم العالية الذكاء والتعليم . والأيديولوجية

---

(١) Parsons; op: citl P. 350

(٢) Ibid. P· 350

صفة أخرى ، على أى حال ، ميزة محببة . فى هذا الزى ، تنشد جذب غير المتعلمين والجماهير . فى صفتها المحببة ، تأخذ الأيديولوجية شكل الرموز العاطفية، وكلمات ساحرة والشعارات والمقاطع السهلة والفنية والجدل الشعبى، إنها تتعامل أيضاً مع معتقدات وأفكار الحركة)[1] (إنه معروف عامة أن فرص أن تصبح فكرة جزء من عقيدة حركة جماهيرية لاتعتمد كثيراً على قيمتها الجوهرية كاعتمادها على جاذبيتها وأهميتها لمصالح ومشاعر وتبرم طبقة اجتماعية معينة وجماعات أخرى . تعتمد قوة الجاذبية إلى حد كبير على تجمع عدة عوامل تختلف كثيراً فى مجرى الزمن ومن مكان إلى مكان)[2] .

وإن كان هيرل يرى أن قوة الجاذبية تعتمد على تجمع عدة عوامل تختلف باختلاف الزمان والمكان، إلا أننى أرى أن أهم عامل فى جاذبية الأيديولوجية ويرتكز على أساس قوى ومحرك عظيم ، هو أن الأيديولوجية بما تعلنه من أهداف للحركة تحقق آمال وتطلعات الفئات المحرومة والمظلومة اجتماعياً ، أى أنها بما تهدف إليه من تغيرات اجتماعية وسياسية واقتصادية كبرى ، سوف يؤدى بالضرورة إلى إعادة توزيع القوة فى كل من النظامين الاقتصادى والسياسى ، ويتبع ذلك بالضرورة أيضاً تغيرات فى علاقة مراكز القوى لفئات المجتمع . ومن ثم فإن أيديولوجية الحركة تعمل على تغيير تصورات وأفكار جزء من أعضاء المجتمع ، وتشكل منهم جماعة ، وتعبر عن موقف هذه الجماعة الاجتماعى ونظرتها للظروف الاقتصادية والسياسية من خلال هذا الموقف، وفكرتها عن دورها فى الحياة الاجتماعية ومركزها فى البناء الإجتماعى.

وهكذا يصبح لدى أعضاء الحركة مجموعة من الأنماط الأولية التى تحدد ردود أفعالهم نحو الأشخاص أو الجماعات الأخرى . ومن ناحية أخرى

---

(١) Blumer: op cit, P 210

(٢) Heberl : op .cit P. 14

تعمل هذه الأنماط الأولية على الترابط الفكرى والوحدة بين الجماعة الداخلية أى أعضاء الحركة[1] . (ففى الجماعات غير الملتحمة معاً أولياً يمثل الروابط العضوية لحياة المجتمع المحلى ، ولكن فقط تشغل مراكز متشابهة فى النسق السيسيو اقتصادى ، من وجهة النظر الاجتماعية ، تصبح الحاجة ماسة لنظرية لتكون التعبير عن مجتمع طبقى يتماسك فيه الأشخاص ليس بالتقارب المحلى ولكن بالظروف المتشابهة للحياة فى دائرة اجتماعية متسعة . إذ أن الروابط الشعورية تكون ذا تأثير فقط فى داخل منطقة مكانية محدودة ، بينما مبدأ نظرى (التصور الكلى Weltanschafueng) يكون له قوة موحدة على مسافات بعيدة)[1] .

وهكذا تعمل الأيديولوجية على تكوين جماعة داخلية ذات نمط فكرى موحد ؛ ويعارض ويحارب النمط الفكرى للجماعة الخارجية . ويصبح هذا النموذج من التفكير الأيديولوجى مشبعاً عاطفياً وإن كان يلائم أفراد الحركات الاجتماعية إلا أنه يميز تفكير الأشخاص فى كل المستويات الاجتماعية. والعواطف التى تولدها حركة اجتماعية نشطة ، سواء سياسية أو اقتصادية أو دينية ، تميل إلى تشجيع مثل هذا التفكير ، إذ يكون هؤلاء الأشخاص متضمنون فى موقف صراعى حيث يمكن بسهولة تصنيف الجماعة الخارجية فى عبارات بسيطه وعواطف النمط الأولى . الجماعة الداخلية محبوبة وتكره الجماعة الخارجية . (فعندما يتحد فرد من جماعة معينة ، فإن النمط الأولى يفعل الباقى ويوفر متاعب التفكير كثيراً . ليس للنمط الأولى ثبات على ، إن أهميته تقع فيما يقوم به من وظائف للأشخاص الذين

---

(١) لمعرفة معنى الجماعة الداخلية والجماعة الخارجية والعلاقات بينهما يمكن الرجوع إلى كتاب « البناء الاجتماعى » للدكتور محمد فؤاد حجازى — مكتبة وهبة .

(٢) Mannheim : op: cit: P. 116— 117

يستعملونه . فإذا عملت أعداد كبيرة من الناس كما لو أن النمط الأولى صادق، فإنه إذاً صادق عندهم)[1] .

فأيديولوجية الحركة تقف من الأيديولوجية القائمة فى المجتمع فى علاقتين مزدوجتين ، الأولى كالأسلحة اللامادية للجماعة الداخلية فى صراعها مع الجماعات الخارجية . فمثلا نلاحظ أن الاشتراكية لكونها الأيديولوجية الرئيسية لحركة طبقة العمال فهى المعارض والخصم للأيديولوجية الرأسمالية.

كما أن العلاقة لا تتوقف عند هذا الحد من الصراع ، ولكن هناك نوع ثان من العلاقة ، هى العلاقة بين الأفكار فى مجال المجهودات العقلية ، فالنظريات الاجتماعية التى تشرح التمايز الطبقى الاجتماعى فى مصطلحات من الاختيار الاجتماعى استخدمتها الطبقات الحاكمة كأيديولوجية لها ، ومن ناحية أخرى ، فكرة أن الكائنات البشرية يمكن أن تتحسن أخلاقياً ومعنوياً عن طريق تحسين البيئة الاجتماعية ، أصبحت عنصراً يوتوبياً فى حركات الوقت الحاضر . كما أننا لو تتبعنا تاريخ الأفكار لوجدنا أنه فى أغلب الأحوال ، مجموعة من الأفكار تهاجمها مجموعة أخرى ، التى تنبعث لتوقظ مناقشات جديدة عن نظرية ثالثة تحاول أن توائم بين الظروف الاجتماعية المستحدثة والأفكار السابقة .

وهكذا كل نظرية اجتماعية هى متأثرة بسابقاتها . فالاشتراكية ولو أنها جوهرياً عقيدة اجتماعية للطبقات العاملة ، قد احتوت عناصر كثيرة من فلسفة نزعة الحرية ، التى هى عقيدة خصيمتها وعدوتها الرأسمالية .

وكل من العلاقتين يوضحان أن الأيديولوجية تحددها إلى حد بعيد مصالح الجماعة الحاملة لها والتمسكة بأفكارها وقيمتها ، وذلك ما يجعلها تزدرى

---

(١) Merrill: op cit: P. 495

أيديولوجية خصومها ، وتعتبرها مجرد أكاذيب (هذا يعنى أن الآراء والمواقف الثابتة وأنساق الأفكار لا تؤخذ على قيمتها الظاهرة ، ولكن تفسر فى ضوء موقف الحياة للفرد الذى يعبر عنها . إنها تدل فضلا عن ذلك أن موقف الحياة للفاعل يؤثر فى آرائه وإدراكاته وتفسيراته)[1] . أى أن المنتجات العقلية ترى فى مصطلحات من مكانة الفرد ، كما ترى فى مصطلحات من محتوى أفكاره ، فأعضاء المجتمع الذين لديهم آراء عن الاقتصاد والسياسة ومختلف العلاقات كما هى مرتبة فى إطار النظم يتأثرون بمكاناتهم وأدوارهم ، ومن ثم فهذا الأساس اللاشعورى له أهمية كبرى فى الحكم على منتجات الأفكار .

وإن كان دوركيم قد رد المقولات[2] إلى بنية العقل الجمعى ، فإن مانهيم ذهب إلى أن هذا خرافة ميتا فيزيقية . (فليس هناك تلك الذاتية الميتانيزيقية كعقل للجماعة Groupmind الذى يفكر فوق وأعلى من رؤوس الأفراد ، أو الذى يكرر الأفراد أفكاره فقط . ومع ذلك من الخطأ أن نستنتج من هذا أن كل الأفكار والمشاعر التى تحرك فرداً لها أصولها فيه فقط . وأنه بالمثل يمكن شرحها فقط على أسس خبرة حياته . تماماً مثل خطأ محاولة اشتقاق لغة من ملاحظة فرد واحد فقط ، الذى يتكلم لغة ليست من عنده ، ولكن بالأحرى يتحدث بها معاصروه وأسلافه الذين أعدوا الطريق له ، وأيضا إنه من الخطأ تماماً تفسير مظهر بالرجوع فقط إلى جذوره فى عقل الفرد . بمفهوم محدد تماماً هل الفرد المفرد يخلق من عنده نموذج الحديث والتفكير الذى ننسبه إليه ؟ إنه يتكلم لغة جماعته ، وإنه يفكر بالطريقة التى تفكر بها جماعته . إنه يجد تحت تصرفه فقط كلمات معينة ومعانيها ، ولا تحدد فقط

---

(١) Nannhiem : op cit., P. 50

(٢) المقولة هى فكرة عند الجماعة تعتبر فى حكم المسلمات .

طرق الدراسة للعالم المحيط به ، ولكن أيضاً إنها تريه فى نفس الوقت من أى زاوية وفى أى محتوى من مناشط الأشياء ، أدرك ما حوله حتى الآن ، وممكن منال للجماعة أو الفرد)[١] .

وهذا ما حدى بكارل مانهيم إلى اعتبار أن المقولات أو التصورات الجمعية لا تصدر إلا عن ظروف التجربة التى يعانيها الإنسان فى حياته الاجتماعية ، ولذلك تختلف المقولات بتغير المواقف والظروف الاجتماعية . إذ يقول (إن النسق من الدلالات يكون ممكن وثابت فقط فى نمط معين من الوجود التاريخى ، ويجهز له تعبيرات ملائمة لفترة . وعندما يتغير الموقف الاجتماعى ، فإن نسق السنن الذى سبق وأعطاه الموقف دلالته يتوقف عن أن يكون فى انسجام معه)[٢] . إذ أن الأفكار لا تتولد إلا عن طبيعة روح العصر ، تلك الروح التى تتمخض عن سائر العمليات التاريخية والثقافية القائمة فى البناء الاجتماعى . ومن ثم تصبح المقولات صوراً اجتماعية صادرة عن تلك الأوضاع والمواقف التاريخية المشخصة ، وهى صور مجردة عن مادتها التاريخية ومحتوياتها الاجتماعية . (فعندما ننسب إلى حقبة تاريخية عالماً عقليا ولا نفسنا آخر ، أو إذا طبقة اجتماعية محددة تاريخيا تفكر فى مقولات تختلف عما عندنا ، نحن نشير ليس إلى الحالات المنعزلة من محتويات الفكر . ولكن إلى أنساق الفكر المتفرقة أساساً وإلى نماذج التجربة والتفسير المتسعة الاختلاف . فالمقولات الاقتصادية هى فقط التعبير النظرى ، والتجريدات للعلاقات الاجتماعية للإنتاج)[٣] .

كما يؤمن مانهيم أيضاً بديناميكية العمليات التاريخية ، لأنها تؤدى دوراً أساسياً فى سسيولوجية الفكر والمعرفة (فعلم اجتماع المعرفة يبحث عن

---

(١) Mannheim : op. cit : P. 2

(٢) Ibit: P. 76

(٣) Ibid P: 50

إدراك الفكر فى وضع معين لموقف اجتماعى تاريخى الذى تنبعث منه مختلف الأفكار تدريجياً . وهكذا إنه ليس الرجال عامة هم الذين يفكرون ، أو حتى الأفراد المنفصلين الذين يفعلون الفكر ، ولكن الرجال فى جماعات معينة هم الذين نموا أسلوباً معيناً من التفكير فى سلسلة لا نهائية من الاستجابات لمواقف نمطية معينة تميز موقفهم العام)[1] .

ومن ثم فقد قاد هذا مانهيم إلى اعتبار أن الأيديولوجية أيضاً ديناميكية. (فالخطوة الأخيرة والأكثر أهمية فى خلق المفهوم الكلى الأيديولوجى أيضاً نشأت عن العملية التاريخية . عندما أخذت كلمة طبقة مكان كلمة الشعب أو الأمة ، على أنها حاملة الوعى المولد تاريخياً ، أعنى أن بناء المجتمع وأشكاله العقلية المتطابقة معه تغيرت مع العلاقات بين الطبقات الاجتماعية تماماً كما كان فى الأزمنة السابقة ، الفروق التاريخية وروح الشعب Folk spirit أخذت مكان الوعى على ما هو عليه ، كذلك الآن مفهوم الطرائق الشعبية Volksgeist الذى مازال أيضاً شاملا ، قد حل محله مفهوم الوعى الطبقى أو أكثر دقة أيديولوجية الطبقة Class Ideology .وهكذا اتخذ نمو هذه الأفكار طريقين من ناحية هناك عملية تركيبية وتكاملية ، أتى خلالها مفهوم الوعى ليجهز وحدة مركزية فى عالم لامتناهى التغير . ومن ناحية أخرى هناك محاولة مستمرة لجعل المفهوم الموحد أكثر مرونة ، إذ كان جامداً جداً وصيغ صياغة محددة فى أثناء العملية التركيبية . نتيجة هذا الميل المزدوج فإنه بدلا من وحدة وظيفية لوعى على ما هو عليه لا زمانى ولا يتغير ، حصلنا على مفهوم يتغير ضبقاً للفترات التاريخية والأمم و"طبقات الاجتماعية)[2] .

فتلك العمليات التاريخية عند مانهيم تضفى بفضل ديناميكيتها على أحداث

---

(١) Ibid: P. 3

(٢) Ibid; p. 606 — 671

التاريخ ووقائعه معقولية ومعنى ، وتصبح العملية الاجتماعية بالضرورة عملية معقولة ، لأنها لا يمكن أن تفسر إلا فى ضوء الاتجاهات والتيارات التاريخية السائدة التى تعطيها معناها . وهذا ما دعى مانهيم إلى الإيمان بأهمية العملية التاريخية ومعقوليتها ، حيث يصبح التاريخ والمواقف الاجتماعية التى تمر بها الحياة ، هما اللذان يرسمان مسار الأيديولوجية والمعرفة إذ أن (تعدد أساليب التفكير لا يمكن أن يصبح مشكلة فى الفترات حيث يوجد الاستقرار الاجتماعى ويكفل الوحدة الداخلية للنظرة للعالم . طالما نفس المعانى للكلمات ونفس أساليب استنتاج الأفكار ، تكون مقررة فى الذهن منذ الطفولة فى كل عضو فى الجماعة ، فإن تشتت عمليات التفكير لا يمكن أن توجد فى هذا المجتمع . وحتى تعديلات تدريجياً فى أساليب التفكير لا يحس به أعضاء جماعة يعيشون فى موقف مستقر ، طالما الرتم فى استخدام أساليب التفكير للمشاكل الجديدة يكون بطيئاً جداً إلى حد أنها تمتد على مدى أجيال عديدة . فى مثل هذه الحالة ، الفرد ونفس الجيل فى مدى اتساع حياتهم يمكن بالكاد أن يتنبهوا أن تغيراً وقع . ولكن بالإضافة إلى الديناميكية العامة للعملية التاريخياً ، عوامل من نوع آخر تماماً يجب أن تدخل قبل أن تصبح أساليب التفكير كثيرة ومتعددة وملحوظة ، وتنبعث كمواضيع للتأمل . إنها بالدرجة الأولى كثافة الحراك الاجتماعى التى تحطم وهم ثبات الأشياء السابق والسائد فى مجتمع ساكن وإن كل الأشياء يمكن أن تتغير)[1] .

وهذا ماجعل مانهيم يهتم بالعمليات الاجتماعية كمنبع أساسى لعملية المعرفة بما تكشفه من تعدد لأساليب التفكير ، فمثلا حركة سريعة بين الطبقات الاجتماعية بمعنى الصعود والهبوط الاجتماعى تؤدى الفرد إلى زوال اعتقاده فى

---

(١) Ibid, P. 6

عمومية وأزالية وثبات وصحة أشكال تفكيره ومن ثم تختلف نظرته التقليدية نحو العالم . ولهذا أكد ماتهيم على أن الوجود الاجتماعى هو المحك والمعيار الوحيد للفكر ، حيث إن الأصل الاجتماعى والتاريخى للفكرة هو الذى يحدد بالضرورة صورة تلك الفكرة ومحتواها ، وذلك بالرجوع إلى ظروفها الاجتماعية وطبقاً للمواقف التاريخية (فنحن ندرك بوضوح أن الأمور البشرية لا يمكن فهمها بعزل عناصرها . فكل واقعة وحادثة فى أى فترة تاريخية يمكن شرحها فقط فى مصطلحات من المعانى ، وأن المعانى بدورها دائماً تشير إلى معانى أخرى ، ولهذا ففهوم الوحدة والاعتماد المتبادل للدلالات فى فترة يوضح دائماً تفسير لهذه الفترة . هذا النسق المتبادل الاعتماد من المعانى يتغير فى كل من أجزائه وكليته من فترة تاريخية لأخرى . وهكذا إعادة التفسير لهذا التغير المستمر التماسك فى المعانى يصبح الغرض الرئيسى لعلم التاريخ الحديث)[1].

ولما كان فكر كل جماعة أو أيديولوجيتها هو نتيجة الظروف الاجتماعية المحيطة بها ، ومن ثم فإن كل جماعة عند ممارستها الحياة السياسية فإنها تحيز كل العناصر فى الموقف الاجتماعى الموجود الذى قد يؤثر على الفكر ، إذ ليس هناك ما يمنع الخصم من أن يستعمل أسلحة أيديولوجية إذ أن (فكر كل الفرق فى كل الفترات له صفه أيديولوجية ، إنه من النادر أن يكون هناك موقفاً عقلياً واحداً)[2]. وهكذا تصبح الحقيقة ضائعة بين الأيديولوجيتين المتصارعتين ، إذ أنه من الواضح أن الجماعات الاجتماعية المتصارعة من أجل الاعتراف بها والقوة تميل إلى التعبير عن أفكارهم الاجتماعية فى أشكال محببة ، ويصورون نظاماً اجتماعياً جديداً ، ويحاولون فى هذه الصياغة أن تكون فى ثوب عقلى رشيد ، ومن ناحية أخرى تلك الجماعات التى تحاول الدفاع

---

(١) Ibid, p. 61

(٢) Ibid., P. 68

عن مراكز القوة والمكانة تعبر عن أيديولوجيتها فى شكل مركب معقد من المبادىء التى تبدو غير متماسكة منطقياً ، ولكن يثبتوا ويبرهنوا أن كل منها متعلق بالآخر خلال وظائفهم العامة للدفاع عن مصالح الجماعة . ومن ثم فهى الإرادة فى الحياة أكثر منها مجرد الحقائق التاريخية الاجتماعية ، والرغبة فى أهداف واضحة خاصة .

وفى الحقيقة أن هذه الكرة لم تغب عن مابهيم ، إذ أنه عندما اتجه إلى طريقة البحث عن الحقيقة ، اعترف بأنه من العسير البحث عن الحقيقة بين هذه الأيديولوجيات المتصارعة ، وخاصة أن كل منها يثبت بأدلة وبراهين على صدق دعواه ، ولكنه يرى أن العالم فى فترة التغير الحالية حيث كل القيم ووجهات النظر يمكن فحص مدى ملائمتها للحقيقة الأصيلة ، هى فرصة أحسن للاقتراب من الحقيقة . إذ يقول (إنه الآن واضح جداً أنه فقط فى عالم عقلى سريع وعميق التغير ، الأفكار والقيم التى كان ينظر إليها من قبل على أنها ثابتة وجامدة ، قد أصبحت خاضعة الآن للنقد الكامل . فلم يكن الناس فى أى موقف آخر من التنبه الكافى لاكتشاف العناصر الأيديولوجية فى كل أنواع التفكير ... اليوم هناك عديد من وجهات النظر ذات القيمة والمكانة المتساوية ، كل منها تظهر نسبية الأخرى ، لتسمح لنا بأخذ أى موقف منها ، أو أن نعتبرها حصينه ومطلقة)[1].

ولكن هيبرل Heberl يرفض فكرة مانهيم عن البحث فى العلاقة بين الأيديولوجية المعلنة والنشاط العملى لرجال السياسة ، إذ يعتبر أنها ليست حالات من الصدق الاقتصادى أو السياسى . فعنده (فى دراسة الأفكار فى الحركات الاجتماعية سوف تتناولهم كصيحات عن أهداف ، وتعبيرات عن رغبات ، أكثر من حالات من الصدق الاقتصادى أو السياسى . فى كلمات

---

(١) Ibid', P. 75

أخرى سوف ننظر إليهم كأيديولوجيات ، التى لها وظائف محددة فى داخل التجمعات الاجتماعية)[١]. ومن ثم فهو يرفض الدراسة التطورية للأفكار أى الدراسة التاريخية التى تتتبع فكرة معينة حسب ظهورها تاريخياً، واعتبر هذا الأسلوب لا يعدو أن يكون أسلوباً لدراسة أنساق الفلسفة ، وأن تحليلها نقدياً بتطبيق مستويات من المنطق ومن الثبات التجريبى سوف يؤدى إلى أخطاء كبيرة إذ أنها تعلق نفسها فقط بوجه واحد من الحركات . فيعتبر أن الدراسة التقليدية للاشتراكية سواء التاريخية أو ذات التقديم المرتب للأنواع المختلفة للنظريات الاشتراكية هى دراسة لهذه النظريات ، وليست دراسة للحركات الاشتراكية فى مختلف البلاد . ومن ثم فهى دراسة تعتمد على مستويات من المنطق والثبات التجريبى .

ولكن هيبرل يرى أنه (لم نعد نحكم على الآثار الاجتماعية للافكار بواسطة مستويات التركيب المنطقى أو الصدق التجريبى . لقد تعلمنا خلال تجارب أحسن ، أن الأفكار غير المعقولة والمنقوضة علمياً يمكن أن تصبح أدوات ذات تأثير كبير فى إيقاظ الناس للعمل وفى بناء مشاعر التماسك والولاء)[٢]. ومن ثم فهو يرى أن الأهمية الكبرى فى الدراسة الاجتماعية للأيديولوجية (تتركز حول دراسة أساليب قبول الجماهير للافكار ، وإلى أى حد تصبح قيماً جوهرية constitutive values فى الحركات الاجتماعية. تميل الحركات الاجتماعية الأكثر أهمية إلى استيعاب كمية كبيرة من التفكير الاجتماعى لعصرهم ، ولهذا أيديولوجياتهم تميل لأن تصبح تجمعات معقدة من الأفكار)[٣] . ويقصد هيبرل بالأفكار التى تصبح قيماً جوهرية هى تلك الأفكار ذات القيمة الحيوية وتشكل الأساس الروحى والعقلى لتماسك

---

(١) Heblerl : op. cit, P 12

(٢) Ibid, P. 13

(٣) Ibid, p. 13

الجماعة والتى تحافظ عليها الحركة أثناء مسيرتها وتصبح هذه الأفكار نظمها الاجتماعية عند نجاحها ، فهى تتضمن إلى جانب الهدف النهائى للحركة ، أساليب ووسائل الحركة للحصول على ذلك الهدف ، وكذلك التبريرات للحركة ، أو بمعنى آخر الفلسفة الاجتماعية للحركة أى أيديولوجيتها، ويسميها هيبرل بالأفكار الجوهرية (تلك الأفكار التى تعتبر أكثر جوهرياً للحركة. فهى تكون أسس تماسكها)[١] .

وينعى هيبرل على مانهيم اعتقاده أنه فى مجال الأفكار السياسية والاجتماعية أن لا تأخذ الأفكار المعبرة دائماً على أساس قيمها الظاهرة ، وأن النظريات الاجتماعية والمذاهب الاجتماعية على الأرجح يكيفها موقع المؤلف فى الترتيب الطبقى الاجتماعى فى مجتمعه وأيضاً الموقف التاريخى الذى فيه فهمت وأدركت الأفكار . ويدلل هيبرل على ذلك بعبارة لإدوارد إسبرنجا Edwarp Spranga (أن نظريات اجتماعية معينة قابلة للتبرير وقابلة للفهم ليس بسبب وضعها الصادق الحقائق الموضوعية وتوضيحها فى علاقات منطقية ، ولكن لأنها تخلق إرادة أعلى للحياة والنصر)[٢] ومعنى ذلك أنه إذا كانت أيديولوجية حركة اجتماعية لاتتفق مع العلم أو المنطق فإن البحث يتجه بالضرورة إلى البحث عن أساسها فى مصالح الجماعة القائمة بالحركة .

بل ويذهب هيبرل أبعد من ذلك فى معارضته لمانهيم ، فهو يرى أن الأهداف المعلنة التى تتضمنها أيديولوجية الحركة ليست دائماً أهداف الحركة ، ففى بعض الأحيان تصاغ الأهداف بطريقة فجة لجذب أكبر عدد ممن لايستطيعون إستيعاب صيغة محددة (ففى قراءة ماركس وانجلز نحن نبحث عبثاً عن وصف تفصيلى للنظام الاجتماعى الشيوعى فى المستقبل ، كما نجد هذا

---

(١) Ipid. P. 24

(٢) Cited Ibib p 27

فى أعمال الاشتراكيين الحاليين . هذا الغموض فى الصورة الماركسية عن المستقبل ربما يكون أحد العناصر التى تشرح التأثير الكبير للماركسية ، إنها خبرة عامة أن البرامج الغامضة غير الصريحة ممكن أن تكون أكثر عوناً من الخطط المحددة والمفصلة جداً عن إعادة التنظيم الاجتماعى)[1].

ومن ثم يمكن اعتبار (أنه فى بعض الأحيان تكون أيديولوجية حركة غير واضحة تماماً للاعضاء أنفسهم ، قد يكونون مازالوا يبحثون عن صياغة لمثلهم ولمدد نظرى لأفعالهم ومقاصدهم . . . وفى بعض الحركات ، الحقيقية والأهداف النهائيه تخفى وتحفظ كسر فى داخل دائرة صغيرة من الأوائل)[2]. ومن ثم فدراسة الحركات الاجتماعية عند هيبرل ، ليس عن طريق أيديولوجيتها ككل ولكن عن طريق الأفكار الجوهرية المرتبة فى تلك الأيديولوجية ، وليس عن طريق صدقها التاريخى والسياسى بتطبيق مستويات من المنطق أو الثبات التجريبى كما ذهب إلى ذلك مانهيم ، ولكن عن طريق البحث عن أساسها فى مصالح الجماعة القائمة بالحركة .

ولقد أدلى الأنثروبولوجيون بدلوهم فى دراسة الأيديولوجيات عن طريق دراسة أيديولوجيات المجتمعات البدائية. ولقد ساهمت هذه الدراسات مساهمة إيجابية فى توضيح تلك النقط التى اختلف حولها مانهيم وهيبرل .

فالعلامة نادل Nadel يعرف الأيديولوجية أولا على أنها الأفكار والقيم السائدة أو الصفات السائدة Ethos فى المجتمع فيقول إنه : (عندما نتكلم عن الأيديولوجية لمجتمع نحن نعنى ذلك تماماً ، أى الأفكار والقيم ، الأكثر أو الأقل انتشاراً والمنسوجة منطقياً ، والتى توضح وتدعم مبادىء العمل

---

(١) Ibid P: 72

(٢) Ibid P. 26

المتضمنة فى المتطلبات العقلية)[١] . هو هنا يكاد يتفق مع مانهيم فى مفهومه عن الأيديولوجية ، إلا أنه لايتوقف عند هذا المفهوم ، إذ اعتبره لايتضمن كل أنواع الأيديولوجيات. (فهناك أيديولوجيات ليست متضمنة فى هذا المعنى، أو على الأقل ، المجهودات العقلية النافذة التى نجدها محكمة الملاءمة جداً، ربما لا تكون واضحة وصريحة كتعبير عن مبادىء مطلوبة عقلياً للعمل)[٢] . وهو بهذا يتفق مع هيبرل . ويضرب نادل مثلا لذلك على اهتمامات معظم المجتمعات البدائية بماضى خرافى أو مغامرات منسوبة إلى الاسلاف أكثر من اهتمامهم بالمستقبل .

وذلك كله يوضح أن الأيديولوجية ، كما تتضمن عناصر عقلية فهى تتضمن بالمثل عناصر لا عقلية . ومن ثم فإن استخدامها لدراسة الحركات ، إن كان يتطلب دراستها عن طريق التحليل المنطق كما ذهب إلى ذلك مانهيم ، فإنه بالضرورة يتطلب أيضاً دراستها عن طريق ارتباطها بمصالح الجماعة المتمسكة بها ووظيفتها لهم . ومن ثم فحيث نجد نفس الأفكار أو نفس الأيديولوجية تنتشر خلال جماعة ما أو مجتمع ما ، يمكننا أن ندرك أنها تحقق مصالحهم ، ومع أن وسيلة الانتشار وأسبابه أيضاً تمثل متغيراً مستقلا معبراً عن اتجاهات الناس نحو التركيبات المنطقية. كما أنه ليس بالضرورة اتفاق الأهمية الاجتماعية من التركيب المحكم للمواضيع العامة ، وحينما يكون الأمر كذلك ، نحن نفهم أن هذا يعنى ليس فقط أنه هنا المتطلبات العقلية مدعمة بكفاءة ، ولكن أيضاً التركيبات المنطقة مرغوباً فيها ومستحسنة .

---

(١) Nadel op. cit. P. 398

(٢) Ibid. p. 399

كما أن العناصر الاعقلية فى الأيديولوجية تمثل أيضاً عنصراً هاماً ومحركا قوياً لأتباع الحركة ، بحيث لا يمكن لأى دارس أن يتغاضى عن هذه العناصر اللاعقلية (فلم نعد نحكم على الآثار الاجتماعية للأفكار بواسطة مستويات التركيب المنطقى أو الصدق التجريبى . لقد تعلمنا خلال تجارب أحسن ، أن الأفكار غير المعقولة والمنقوضة علمياً يمكن أن تصبح أدوات ذات تأثير كبير فى إيقاظ الناس للعمل)[1] . وعادة أهم هذه الأفكار اللاعقلية تكون متضمنة فى أسطورة الحركة التى تبشر بمجتمع الغد . وهذا مادعى كثير من علماء الاجتماع إلى اعتبار أن الأسطورة من أهم عناصر الأيديولوجية ، إذ ما هى إلا شرحاً عن كيفية وجود الأشياء وتفسيراً لأسبابها وكينونتها إلى جانب تطلعاً إلى مجتمع الجنة ، أى الأمل فى مستقبل أحسن . حتى أن مانهيم يذهب إلى أن (أسلوب الحياة الخالى من الأساطير الجمعية من النادر أن يطاق)[2] .

وتتطلب الأسطورة الإيمان بمبادىء أساسية للمجتمع والحركة الاجتماعية، ولهذا فوظيفة الأسطورة هى تهيئة طاعة الفرد للمجتمع أو الحركة ، وتؤكد له أن هذه الطاعة مرغوب فيها ، بل وتجعل معتنقى الأسطورة يرغبون فى عمل ما عليهم أداؤه وبسرور أيضاً . ومن ثم يسود الاستقرار المجتمع إذا كان هناك توافق بين الأسطورة والنظم الاجتماعية . (فإذا كان الناس يعتقدون فى الحق الإلهى للملوك فإنهم يكونون على استعداد لقبول البناء الاجتماعى المؤسس على ملكية مطلقة . وإذا كانوا يعتقدون فى نظام الإقطاع بعلاقاته الاجتماعية المتسلسلة فإنهم من السهل أن يكيفوا أنفسهم لمثل هذا الاسلوب من الحياة . فنادراً ما يفحص الناس الأسطورة ذلك هو الأسلوب الذى

---

(١) Heberl, op cit. P 13

(٢) Mannheim op cit P 31

كانت عليه دائماً ، وسوف تظل عليه دائماً ، إذ تقوم الأسطورة على الاعتقاد)[١] .

ولهذا تقبل الأسطورة السائدة كحقيقة صادقة عند معظم أعضاء المجتمع ، ومن ثم تصبح الأساس الاجتماعى للعمل الاجتماعى . وليس معنى هذا أن تكون الأسطورة ذات صدق تجريبى ، ولكن المهم أنها تصور أملا جذابا يحمل الناس على العمل ، فمثلا أسطورة (من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته) إحدى أساطير الشيوعية لم تتحقق حتى الآن رغم مضى قرابة ستين سنة على قيام الثورة الاشتراكية الشيوعية فى روسيا ، ورغم ذلك مازالت تحمل الناس على العمل كأمل لغد مشرق ، فالاعتبار المهم هو الاعتقاد الذى تحظى به الأسطورة من حامليها . فإذا اضطرب هذا الاعتقاد اضطرب تبعاً له المجتمع ، ومعنى ذلك أن نظم المجتمع والأسطورة أصبحا غير متلائمين ، ذلك يكون نتيجة لتغيرات اجتماعية أدت إلى فقد الاعتقاد فى الأسطورة القديمة ، ونشأة أسطورة جديدة استحوذت على اعتقاد الجماهير ، وتبعاً لذلك تفقد النظم الاجتماعية المنسجمة مع الأسطورة القديمة كفاءتها فى العمل أى تصبح غير مشبعة . (فعندما يبتدىء الناس فقد الإيمان بالأسطورة ، لا تستطيع كل السياسة فى العالم أن تمسك "بناء الاجتماعى معا)[٢] .

فالمجتمعات التى قامت فيها الحركات الاشتراكية ، توقف أعضاء المجتمع فى تلك المجتمعات عن تأييد أسطورة الديمقراطية الرأسمالية وحلت محلها أسطورة الاشتراكية ، وتغير تبعا لذلك معظم أنماط النظم الاجتماعية السائد فى تلك المجتمعات . وما الثورات إلا حركات لإحلال أسطورة جديدة محل أسطورة قديمة .

---

(١) Merril, op. cit, p. 496

(٢) Ibid. p 496

٥ — التنظيم والبناء

وكما تنمى الحركة الاجتماعية أيديولوجيتها تدريجيا أثناء دورة حياتها ، فإنها بالمثل تنمى أيضاً تنظيماوبناءاً . فالحركة الاجتماعية (تنمى تنظيما وبناءاً يجعل منها بالضرورة مجتمعاً ... وفى داخلها ينمو تقسيماً للعمل وخاصة فى شكل بناء اجتماعى ، يشغل فيه الأفراد مراكز مكانية statu، Positions)[١] . ولايكون هذا التنظيم وذلك البناء نامى التكوين منذ بداية الحركة ، ولكنهما ينموان أثناء مسيرتها ، إذ فى البداية تكون الحركة الاجتماعية واهية التنظيم وتتميز بسلوك دافق ومحرك ، فسلوكها وتفكيرها إلى حد كبير يكون تحت سيادة التبرم والإثارة الجمعية . وبنمو الحركة ، يميل ذلك السلوك المشتت إلى الانتظام والتماسك .

وغنى عن البيان أن أى نوع من السلوك الاجتماعى المتماسك الذى يشارك فيه عدد كبير من الأشخاص يتطلب بالضرورة درجة ما من التنظيم. وكلما كبر حجم جماعة الحركة زادت الحاجة إلى التنظيم الدقيق . (فى مرحلة التشكيل تصبح الحركة أكثر وضوحاً فى التنظيم مع قواعد وسياسات وتكتيكات وترتيب ، وهنا القائد يشبه رجل الدولة . وفى المرحلة النظامية تكون الحركة قد تبلورت فى تنظيم ثابت مع شخصيات وبناء محدد ليعملوا على تنفيذ أغراض الحركة ، وهنا يشبه القائد مديراً)[٢] .

تلك الحاجة إلى التنظيم والبناء المتزايدة بزيادة حجم الحركة ذات أهمية بالغة للحركة . إذ يعنى كبر حجم الحركة كبر حجم المقاومة من النظم المستقرة فى المجتمع . إذ أن الحركة بزيادة حجمها يعنى هذا أنها تزيد من إجراء عمليات

---

(١) Blumer, op. cit, p. 202

(٢) Ibib, P. 203

التغير فى أسلوب التفكير والعمل لأعداد أكبر من الناس ، وكذلك عن تصوراتهم ومفاهيمهم عن علاقات الأدوار والمكانة ومدى تناسبهما ، ومن ثم تزداد مقاومة الجماعات المهددة مراكزها وأدوارها فى المجتمع . فإن لم تزداد تبعاً لذلك قدرة الحركة على التنظيم والبناء أى التماسك . فإنها لن تثبت أمام هذه المقاومة . ذلك أن زيادة التوترات الناجمة عن عمليات التغير التى تجريها الحركة بتزايد حجمها يؤدى إلى زيادة عمل ميكانزمات الدفاع فى النظم الاجتماعية القائمة فى المجتمع ، أو بمعنى آخر أن زيادة حجم الحركة يعنى زيادة انتشار أيديولوجيتها المغايرة لأيديولوجية المجتمع ، مما يؤدى بالضرورة إلى حالة من عدم التوازن والصراع بين الأيديولوجيتين ، وتنشأ التوترات بين الأيديولوجية المتزايدة الانتشار وبين النظم الاجتماعية المؤسسة فى المجتمع والمتوافقة مع الأيديولوجية الآفلة ، فتحاول النظم القديمة إجراء عملية إعادة التوازن وقد تكون بأساليب تتميز بالقهر أو الخداع ، ومن ثم لا يقوى على التغلب عليها إلا تنظيما وبناءاً يتزايد زيادة مطردة مع زيادة هذة المقاومة .

بل أكثر من ذلك أن نجاح الحركة يعتمد إلى حد كبير على قوة بنائها وتنظيمها من ناحية ، ومن ناحية أخرى ضعف بناء وتنظيم القوة المضادة أى القوة الضابطة فى المجتمع الذى تحاول الحركة تغييره فعند بارسونز (المجموعة الرابعة من الظروف تتعلق بالاستقرار لوجوه النسق الاجتماعى الذى تحاول الحركة التعدى عليه ، النقطة الهامة هنا تكون تنظيم نسق القوة مع إشارة خاصة للدولة . يشك الإنسان أن الأسباب الرئيسية لعدم نجاح ثورة اليسار بعد فى بلد واسع التصنيع ، يكمن فى هذه المجموعة من الظروف ... مثلا فى روسيا قبل الثورة ، وفى الصين ، كان هناك جماعة حاكمة صغيرة جداً تقف متعالية ضد جماهير ضخمة من الفلاحين الساكنين سياسياً ، ساكنين بمعنى باستثناء حساسيتهم أنهم منجرفون فى حركة مضادة

ضد الحالة الحاضرة . فى دولة كهذه يكون بناء القوة غير مستقر ويمكن أن يقذفه تدبير سياسى ، وخاصة عندما يكون تحت وطأة التوترات ، كنتيجة الهزيمه فى حرب ومن ثم يهتز الولاء لكتل القوات المسلحة)[1] .

ويبدو أن بارسونز صادق فيما ذهب إليه ، فإن ظاهرة ضعف بناء وتنظيم القوة الحاكمة فى مصر خلال سنة ١٩٥١ ومطلع سنة ١٩٥٢ ، حيث توالت فى فترة لا تزيد عن ثلاثة أشهر ، ما يقرب من خمس حكومات حتى أن آخر وزارة قبل نجاح الحركة المصرية فى يولية سنة ١٩٥٢ ، لم تبق فى الحكم إلا أيام معدودة ومن ثم فإن عامل ضعف البناء والتنظيم للقوة الحاكمة من ناحية ، وقوة تنظيم وبناء الحركة داخل الجيش من ناحية أخرى كان له أثر حاسم فى نجاح الثورة المصرية .

والحركة الاجتماعية فى بدايتها لا يكون لها تنظيم رسمى ، وليس معنى هذا أنه ليس لها أى نوع من البناء ، ولكن فى الحقيقة يكون لها نوع من البناء ، بمعنى أنه يظهر فيها توزيعاً للوظائف تلقائى يصنعه اتفان مضمر بين أعضاء الجماعة ، ذلك يرجع إلى أن نشاط الحركة يقتضى بالضرورة بروز الأعضاء المفكرين ليقوموا بالأدوار الهامة فى نشاط الحركة ويتبعهم بقية الجماعة ، أى أن هناك أعضاء لهم تأثير ، ومن ثم يكون لسلوكهم وأفكارهم تأثير على الآخرين ، وهكذا يكون لجماعة الحركة بناء ، إذ ما البناء الاجتماعى للحركة إلا تخصص للأدوار والمراكز فى داخل الجماعة لمختلف أعضائها حتى ولو كان ذلك مجرد اتفان أملاه واقع العمل فى داخل الحركة ومتطلباتها ، فلا هو مرتب بواسطة المكانات أو قواعد رسمية للسلوك .

وإن كان هذا التنظيم اللارسمى هو من طبيعة التجمعات التى تنتظم فى

---

(١) Parsons, op. cit, P. 523

سلوك جمعى ، إلا أنه يؤدى دوراً هاما فى التمهيد لظهور التنظيم الرسمى للحركة ، إذ أن هذا التنظيم اللارسمى يعمل على إبراز العناصر القادرة على أداء الأدوار الرئيسية فى الحركة وصلاحيتهم ونوعياتهم ، ومن ثم فيسهل على الحركة توزيع المكانات والأدوار بين أعضائها . ومتى تم هذا التوزيع ، الذى يقتضيه بالضرورة كبر حجمها وشدة المقاومة لها . يكون تنظيم وبناء الحركة الرسمى قد ظهر إلى الوجود . وتعتمد طبيعة هذا التنظيم أى مدى دقته وإحكامه وفاعليته على مميزات أعضاء الحركة ، أى مستوياتهم الثقافية ، ومدى إيمانهم بالحركة وعقائدها ، ومدى قدرتهم على البذل للحركة ماتتطلبه من جهد وأعباء ، وعلى أخلاقياتهم لكسب الأنصار ، وولائهم للقادة .

وبتوزيع الأدوار وتقسيم السلطة فى داخل جماعة الحركة يكون قد تم تنظيم وبناء الحركة . (فالبناء بالإشارة إلى الحركات الاجتماعية ، يعنى فى المكان الأول الفروق فى الأدوار وتوزيع القوة والتأثير والسلطة فى داخل الحركة)[1] أى يتم البناء والتنظيم إذا أعطيت السلطة لأعضاء معينين من الحركة ، يكون لهم بمقتضاها الحق فى إعطاء أوامر إلى أعضاء الجماعة ، ولهم سلطة طلب أو تحريم أعمال معينة من الأعضاء الآخرين ، ويتوقعون الطاعة لطلباتهم . وهؤلاء الأعضاء المفوضين يعملون من داخل مجال سلطتهم ، لا كأشخاص منفردين ولكن كوكلاء عن الجماعة سواء فى داخل الجماعة أو فى علاقة الجماعة مع الخارجيين أو الجماعات المنظمة الأخرى . وتنظم هذه السلطات بمجموعة مؤسسة من القواعد ترتب أعمال كل أعضاء الجماعة وخاصة المفوضين . هذه القواعد تحدد أساليب عمل قرارات الجماعة وإجراءات إنجازها . ومن أجل العمل على استمرار ودوام العمل ، كل جماعة منظمة تحتاج إلى تسجيلات لأعمالها ولأعمال أعضائها المفوضين officer

---

(١) Heberl, op cit, P.16

وتزداد أهمية مثل هذه التسجيلات مع كبر حجم الجماعة وتنوع نشاطها وتعقد تنظيمها ، وتلك التسجيلات ذات أهمية كبرى للضبط على جماعة الحركة .

ولأيديولوجية الحركة من ناحيه ، ومن ناحية أخرى تنظيمها وبنائها ، علاقة شديدة بتكتيك واستراتيجية الحركة (سواء أكانت الجماعات والمناشط المنظمه للحركة محددة أم لا ، وسواء أكانت السلطة فى داخل الحركة مركزة أم لا ، ويعتمد كل ذلك وسمات بنائية أخرى إلى حد كبير استراتيجية ثورية أو التطورية للحركة . ويحدد حجم وبناء وحداتها المنظمة إلى حد كبير الاعتبارات التكتيكية)[1].

---

(١) Ibid, P. 16

٦ — الاستراتيجية والتكتيك

يفرق بعض علماء الاجتماع بين الاستراتيجية والتكتيك ، والبعض الآخر يجمع بينهما . فهيبرل يفرق بين التكتيكات والاستراتيجية فى قوله (بما أن فى الميدان السياسى لا تستخدم قوات ولا معارك تحارب ، فإنه واضح أن اصطلاحى تكتيك والاستراتيجية يمكن أن يستعملا فقط بمعنى مجازى)[١] فيذهب العلامة فيليكس Felikes إلى التفرقة بين الاستراتيجية والتكتيك فى قوله (فتشير التكتيكات السياسية إلى استخدام القوات السياسية فى موقف تيار، وواقعى ، وتاريخى، ومتماسك للتعاون مع، أو الكفاح ضد ، قوات سياسية أخرى ، الاستراتيجية السياسية هى استخدام الحركات التكتيكية للوصول إلى الأهداف الأيديولوجية الكبرى)[٢] إلا أن بلومر يعتبر التكتيكات هى (كسب الأنصار والاحتفاظ بهم والوصول إلى الأهداف)[٣] أى أن بلومر يجمع بين مفهومى التكتيك والاستراتيجية فى مفهوم واحد .

وفى الحقيقة أنه من الصعب فى حالات كثيرة ، رسم خط دقيق للتمييز بين التكتيكات والاستراتيجية ، تماماً كما هو صعب التميز فى حالات أخرى بين الأفكار الاستراتيجية والتكتيكية والأيديولوجية ، طالما أن الأيديولوجية بالضرورة تحتوى أفكاراً عن الأساليب والوسائل التى بها يمكن تحقيق الهدف النهائى للحركة . المهم أن هذه الاستراتيجية وتلك التكتيكات تعتمد إلى حد كبير على الموقف الاجتماعى الذى تنشىء فيه الحركة . ومن ثم فإنها تتميز بالمرونة والتغير طبقاً للمواقف المتجددة التى تمر بها الحركة أثناء نموها . إذ أنه يوجد علاقة وثيقة بين الاستراتيجية والتنظيم ، فأشكال معينة من العمل تتطلب أشكال معينة من التنظيم ، ومن ناحية أخرى اختيار أنماط العمل يحددها شكل التنظيم .

(١) Heberl, op. cit.: P. 360

(٢) Gross, Felikes: European Ideologis Philosophical Lib. Ine., N. Y. 1948; p. 5

(٣) Blumer: op. cit., p. 211

٧ - ا نواع الحركات الاجتماعية

ولقد صنف علماء الاجتماع الحركات الاجتماعية إلى أنواع مختلفة من الحركات الاجتماعية فمنها حركات الإنعاش والحركات الدينية وحركات الموضة . وإن كنت أرى أن حركة الموضة لا يمكن أن ينطبق عليها ما سبق ذكره من مراحل النمو وكذلك ليس لها أيديولوجية أو بناء وتنظيم . فمن ثم فحركات الموضة التى ذكرها بعض علماء الاجتماع ما هى إلا اتجاهات وميول اجتماعية ، ومن ثم فليس لها من صفات الحركات الاجتماعية إلا كونها نوعاً من السلوك الجمعى ، وحتى هذا الأخير لا يوجد فيها إلا بشكل ضئيل .

ورغم أن بلومر Blumar يذكرها كنوع من الحركات الاجتماعية ، إلا أن وصفه لها يخرجها من الحركات الاجتماعية الحقيقية . فهو يقول : (كحركة ، تظهر الموضة تشابهاً قليلا لأى من الحركات التى ذكرناها ، فهى تحدث تلقائياً ، إنها تتضمن قليلا من أسلوب السلوك الجمعى . ولا تعتمد على عملية النقاش ونتائج الرأى العام ولا تعتمد على الميكانزمات التى تحدثنا عنها، فلا يجند الممارسون خلال الإثارة أو الهواية . ولا بين الممارسين روح جماعة أو حالة معنوية ولا تتطلب أيديولوجية لها . وفضلا عن ذلك ربما لا يكون لها قائد يغذى اتجاه وعى الحركة ، فإنها لا تتبنى أى مجموعة من التكتيكات ، ويشارك الناس فى حركة الموضة اختيارياً . وفى استجابة للهواية . ليست حركة الموضه فريدة فى تعبيراتها عن صفاتها فقط ، ولكن أيضاً تختلف عن الحركات الأخرى فى أنها لا تنمو إلى مجتمع . إنها لا تبنى تنظيما اجتماعياً . فليس لها شخصيات لهم وظائف ، فهى لا تنمى تقسيما للعمل ربما بين سيها . ولا تكون مجموعة من الرموز والأساطير والقيم الفلسفية

أو بمجموعة من التجارب، وفى هذا المعنى إنها لاتشكل ثقافة ،نأخيراً لاتنمى بمجموعة من الولاء أو تشكل وعى النحن)[1].

ويبدو أن ما أوقع بلومر فى هذا الخطأ هو أنه كان يدرس الحركات الاجتماعية ضمن مقال له عن السلوك الجمعى ، ومن ثم فقد صنف الحركات الاجتماعية إلى حركات عامة وحركات خاصة وحركات تعبيرية . وجعل حركة الموضة ضمن الحركات التعبيرية رغم أنه ليس لها أى ملامح من الحركات الاجتماعية الحقيقية إلا كونها نوعاً من أنواع السلوك الجمعى .

وبالمثل ذلك التقسيم للحركات الاجتماعية أوقع بلومر فى خطأ آخر إذ جعل الحركات الدينية نوعاً من الحركات التعبيرية ، رغم أن الحركة الدينية لها كل الصفات التى للحركات الاجتماعية الحقيقية التى سماها الخاصة ،وخاصة الثورة ، التى تعتبر أصدق وجه يعبر عن الحركات الاجتماعية ، فهو يعرف الحركات المعبرة بأن (الملامح المميزة للحركات المعبرة هى أنها تنشد تغيير نظم النظام الاجتماعى أو صفاتها الموضوعية أو أهدافها المميزة ، فالتوتر والقلق الذى تنبعث منه لا يكون مركزاً على بعض أهداف التغيير الاجتماعى الذى تنشد الحركة إنجازه ، بدلا من ذلك فإنها تؤدى فى بعض النماذج من السلوك التعبيرى ، الذى فى صيرورتة إلى تبلور ربما يكون له آثار عميقة على شخصيات الأفراد وعلى صفات وملامح النظام الاجتماعى . وسوف نذكر نوعين من الحركات التعبيرية الحركات الدينية وحركات الموضة)[2] أى أن هذا النوع عنده لايهدف إلى تغييرات جذرية فى بنية المجتمع الذى تنشأ فيه .

ولذلك فى حديثه عن الحركات الدينية كحركة تعبيرية يذكر أن

---

(١) Blumer op cit p 217—218

(٢) Ibid p 214

(الحركات الدينية لكونها بالضرورة مقدسة ، فإن قاعدتها تكون فى موقف ، يشبه جمهرة راقصة ، فهى تمثل أو تظهر اتجاه داخلى من القلق والتوتر فى شكل مشاعر متقلبة . فى النهاية تعبر عن نفسها فى حركات مصممة ومرسومة لتحرير التوتر ، ولهذا فالتوتر لا يذهب بعيداً إلى عمل هادف ولكن إلى تعبير)[١] ويوضح بلومر نوع هذا التعبير (بأن الحركة تهدف ، على الأقل أصلا ، ليس تغيير الوجود الخارجى ، ولكن تغيير الحياة الداخلية . وبهذا المعنى ، الطائفة يمكن اعتبارها كثورة عميقة ، وفى ذلك تسعى أن تتضمن مفهوماً جديداً عن العالم بدلا من مجرد البحث عن إعادة صنع النظم أو الهدف البنائى للنظام الاجتماعى)[٢].

وغنى عن البيان أن اعتبار بلومر الحركات الدينية لا تقصد تغيير النظم الاجتماعية هو خطأ كبير ، لأن الحركات الدينية كحركات اجتماعية وإن كانت مرتبطة بالسماء أصلا فهى تعمل على إيجاد المجتمع الذى يسمح بنمو مبادئها واستمرارها ، ولا يتأتى ذلك إلا بتغيير النظم الاجتماعية ، فهى وإن كان هدفها الأول هو العلاقة بين الفرد وربه ، ولكن فى بؤرة الحركة معرفة واضحة بأن الفرد يعيش فى مجتمع ولا بد أن يتغير المجتمع ليتمكن الفرد أن يعيش لمبادئه وقيمه الجديدة ، وأن إدخال قيم جديدة وعلاقات جديدة بين الأفراد والجماعات أى إحلال نمط جديد من العلاقات ، هذا بالضرورة يؤدى إلى تغير كل من البناء الاجتماعى والنظم الاجتماعية التى هى مسرح العلاقات الاجتماعية .

ومن العجيب أن بلومر نفسه يذكر هدفين للحركة الدينية أولهما (أنها تبحث عن تجديد أخلاق العالم) ، وثانيهما (أنها تتضمن مفهوماً جديداً عن

---

(١) Ibid, p. 214

(٢) Ibid, p 216

العالم بدلا من مجرد البحث عن إعادة صنع النظم)[١] . وهذا يعنى عاملان هامان يؤديان إلى تغييرات جذرية فى البناء الاجتماعى ، إذ أن تجديد أخلاق العالم عن طريق إعطاء مفهوم جديد عنه ، ذلك يعنى تغيراً فى التصورات الجمعية للأفراد والجماعات ولما كانت معظم النظم الاجتماعية نابعة من تصورات الاجتماعية للمجتمع ، ذلك أن النظم سواء المكتوبة أو غير المكتوبة هى عبارة عن صورة من التصورات الجمعية للمجتمع ، وأن تغيير هذه التصورات الجمعية أو بمعنى آخر تغيير أيديولوجية المجتمع ، يؤدى بالضرورة إلى تغيير النظم الاجتماعية ، إذ ما النظم الاجتماعية إلا تنميط للعلاقات الاجتماعية كما تتصورها الجماعة . وأن مجرد تحول الأيديولوجية عن هذه النظم ، أى بمعنى آخر مجرد تحول الجماعات والأفراد عن التمسك بهذه النظم واعتبارها أنها لا تعبر عن تصوراتهم الجمعية يؤدى إلى زوال هذه النظم . وليس أدل على ذلك من قول بلومر نفسه عن أن مذهب الجماعة الدينية (يصبح محكماً فى مجموعة كبيرة من العقائد ، كما تصبح الجماعة الدينية عالمة بالنقد الذى يقوله الخارجون، وينشد المذهب تفسير نظراته . وبهذا الأسلوب ينشأ الثيولوجيا جزءاً كبيراً منها فى شكل علم الدفاع عن صحة الدين Upologia يصاحب هذا بعض تغير فى الشعائر ، أولا فى شكل إضافات . هذه الملامح عند ممارسة أساليبها فى الحياة تجعل الجماعة خاضعة للنقد وحتى للاضطهاد على يد الجماعات الخارجية وتعتبر الجماعة الدينية ذلك دليلا على صحة معتقداتها ، وبهذا تكتسب أهمية خاصة)[٢] .

ومعنى هذا أنه بانتشار الحركة أى انتشار أيديولوجيتها وخاصة إذا انتصرت الحركة وتحول مجتمع الحركة من جماعة داخلية صغيرة تواجه جماعة

---

(١) Ibid., p. 216

(٢) Ibid., p 215

خارجية كبيرة ، إلى جماعة داخلية كبيرة تواجه جماعة خارجية صغيرة ، فبالضرورة سوف يؤدى هذا إلى تغييرات جذرية فى النظم الاجتماعية التى سبق أن بنيت على أساس مجموعة أخرى من العقائد .

ومن الحركات الاجتماعية التى نالت اهتمام علماء الاجتماع حركة اجتماعية اتفق العلماء على تسميتها بحركات الانتعاش Revivals أو الإحياء ، وهى محاولة للعودة للأساليب القديمة ، ويعبر العلامة فارس Faris عن حركات الإحياء بأنها (إحياء وجوه معينة من شق ثقافى كان يعمل بنجاح سابقاً ، ويختلف الإحياء فى المجال ، من الاهتمامات الجمعية الهادفة فى ناحية محددة من بعض وجوه الثقافة السابقة ، إلى مجهود عام للعودة إلى نسق كلى من الأيام السالفة) وهو يميز بين نموذجين من عمليات الإحياء ، ويعتبر أن النموذج الأول وهو الاهتمامات الجمعية الهادفة فى وجه محدد من الثقافة هو الأكثر شيوعاً فى العصر الحاضر ، ويضرب لذلك مثلا بإحياء الفنون الشعبية ، وفارس هنا أقحم الميول والاتجاهات الاجتماعية على الحركات الاجتماعية ، فما إحياء الفنون الشعبية أو التراث الفنى الشعبى مثل ما يحدث فى مصر ليس إلا تعبيراً عن اتجاهات اجتماعية ، ولا يمكن أن نسميها حركة اجتماعية لأنها تفتقر إلى كل صفات الحركات الاجتماعية .

أما النمط الثانى ، وهو المجهود العام للعودة إلى نسق كلى من الأيام السالفة ، وقد قصد بهذا الحركات القومية ، وهذه تعتبر حركة اجتماعية ، إذ أن الحركات القومية عادة يكون لها كل صفات الحركات الاجتماعية الحقيقية ، ومثل هذه الحركات تهدف إلى تغيير المجتمع بالرجوع إلى نسق سالف ثبت نجاحه ، وذلك يعنى أن النظم الاجتماعية الحالية ثبت فشلها فى الإشباع ، وهجرها المجتمع كأسلوب فى التفكير والعمل ، وفضل العودة إلى أسلوب سابق فى التفكير والعمل ، وما دعوة القومية العربية فى مصر إلا إحياء لمجد الدولة العربية القديمة التى سادت المنطقة العربية خلال الدولة الإسلامية .

وهذا ما جعل بلومر يزاوج بين الحركات القومية وحركات الإحياء فى حديثه عن حركات الإحياء (حركات الإحياء والحركات القومية هى خاصة تكون لها تلك الصفة المتشابكة)[١] .

أما حركات الإصلاح ، فيجمع علماء الاجتماع على أنها تهدف إلى إحداث تغيرات اجتماعية تدريجية فى بعض النظم الاجتماعية (فالإصلاح يعنى التدريجى ، عمل خطوة بخطوة نحو الأهداف المقصودة تؤدى إلى تغيرات بطيئة فى البناء السوسيو سياسى للمجتمع)[٢] . ويرى أوجبرن ونمكوف أن هذه السلسلة من الخطوات هى (أولا إدراك أن هناك حاجة للتغير ، عادة بواسطة أفراد قلائل، وهم يحفزون الناس للتغير إذا كانت دعايتهم ناجحة، فإنها تؤدى إلى نمو تنبيه عام للحاجة للتغير ، عند هذه النقطة ربما يكون البرنامج ذا صياغة محددة أكثر ، ويقوم تنظيم)[٣]. أى أن أسلوب الحركة الإصلاحية هو تنمية رأى عام يتفق ويشجع أهدافها دون تهيج أو إثارة . ومن ثم فإنها تنشد تأسيس مواضيع شعبية ، كما تعمل على الاستفادة من عملية المناقشة التى تدور أمام الجماهير . فتجذب أكبر عدد ممكن من أعضاء المجتمع لتأييدها ، ولكونها لا تبغى تغيراً فى البناء الكلى للمجتمع ، فإنها لذلك تستفيد من النظم الموجودة فى المجتمع مثل المدارس والمساجد والكنائس والصحف ووسائل الاتصال الجمعى والنوادى ، ومن ثم تأتى الخطوة الثانية (نوع من الكفاح ، مع عمل جهود خاصة لتؤدى إلى ضغط على الأفراد والهيئات التى تؤدى أدواراً استراتيجية فى الموقف ، فإذا نجحت الحركة الإصلاحية يؤسس برنامجها)[٤]. أى أنها تحاول تجنيد ولاء الأعضاء

---

(١) Ibid., P 219

(٢) Heberl, op, cit., P. 366

(٣) Ogburn & Nimkoff, op. clt; P. 615

(٤) Ibid. P. 615-616

الذين يشغلون مراكز القوة فى المجتمع وتوقظ فى داخلهم عطفاً من أجل الجماعة المهضومة ، وخاصة أنه عادة يأتى قادة أعضاء الحركات الإصلاحية من الجماعات غير المهضومة الحقوق ، ومن ثم لا يمكن اتهامهم بأنهم يسعون لمصالح خاصة بهم ، وهكذا يمكنهم ممارسة الضغط على أعضاء المجتمع الذين يملكون العمل ويتولون الضبط فى المجتمع ، فإذا استجابت هذه الفئة تعتبر الحركة الإصلاحية نجحت فى تأسيس برامجها ، ومن ثم تأتى الخطوة الثالثة (يصبح البرنامج جزءاً من النظم المقبولة)[1] . أى أن الحركة تكون قد نجحت فى جهودها وتم التغير المطلوب ويتأسس هدف الإصلاح ويصبح جزءاً من النظام الاجتماعى .

---

(١) Ibid. P. 616

٨ — الثورة

١ — معنى الثورة :

يكاد يجمع معظم علماء الاجتماع على أن الحركات الإصلاحية تهدف إلى تغيرات فى أجزاء من النظم الاجتماعية ، وليس كل البناء الاجتماعى ، بينما تهدف الثورة إلى إحداث تغيرات فى البناء الاجتماعى كله ، إذ (تهدف الحركة الإصلاحية إلى تغيير بعض الوجوه الخاصة أو مناطق محدودة من النظام الاجتماعى الموجود . فقد تنشد مثلا ، إزالة تشغيل الأطفال ، أو منع استهلاك الكحوليات ، أما الحركة الثورية فهى ذات أهداف أوسع ، إنها تهدف إلى إعادة بناء النظام الاجتماعى)[١] .

ولكن هيبرل يرى أن الفرق بين الحركة الإصلاحية والثورة لا يكمن فى درجة التغير ، أعنى مداه وشموله لنظام أو أكثر ، ولكن فى السرعة والفجائية ، فهو وإن كان يعتبر الحركة الإصلاحية تمضى قدماً تدريجياً نحو الأهداف المقصودة ولكن هذا السعى إلى أهدافها قد لا يتوقف عند نظام اجتماعى واحد أو جزء من نظام ، بل قد تؤدى إلى تغييرات أساسية فى البناء الاجتماعى ، بينما قد لا تؤدى ثورة إلى أى تغيرات فى أى من النظم الاجتماعية ، إذ يقول إن (حركة إصلاحية تدريجية ولكن رئيسية قد تمهد لتغيير أساسى مستمر فى وضع القوة السياسية والاقتصادية ، وبهذا تغير كل البناء الاجتماعى بينما ثورة سياسية عنيفة فجائية قد لا تنتج تغيرات باقية وعظيمة فى النسق الاجتماعى)[٢] .

ولكن بلومر يعارض هذا الرأى ، ويرى أن الحركة الإصلاحية لا يمكن

---

(١) Blumer, op cit, P. 212

(٢) Heberl. op. cit, P. 366—367

أن تؤدى إلى تغيرات أساسية فى البناء الاجتماعى إلا إذا تحولت إلى ثورة ، فهو يعتبر أنه فى حالة إذا ما شعرت الحركة الإصلاحية أن بعض الطبقات القوية أو المصالح المكتسبة تعارضها بصرامة جداً ، فإنه محيمل أن يمتنع عليها استخدام النظم الموجودة ، هذا يميل إلى تغيير الحركة الإصلاحية إلى حركة ثورية ، وتتسع أهدافها لتتضمن إعادة تنظيم النظم الاجتماعية التى تمنع تقدمها حالياً [١].

وكذلك يتضح أن أساس الاختلاف عند هيبرل بين الحركة الإصلاحية والحركة الثورية ، ليس فيما تؤدى إليه كل منهما من نتائج ، ولكن فى الأسلوب ، فالحركة الإصلاحية تدريجية ، أما الثورة فجائية ، وإن كانت ليست بالضرورة عنيفة إذ يقول (ولهذا مصطلح الثورة عادة يستعمل بمعنى فنى ليشير إلى عملية سريعة نسبياً ، ولكن ليست بالضرورة عنيفة)[٢]. ويبدو أن ذلك يرجع إلى دراسته للثورة الألمانية سنة ١٩١٨ فهو يرى (أنه من المشكوك فيه ما إذا كانت الثورة الألمانية سنة ١٩١٨ بالرغم من عنفها ، يمكن النظر إليها كثورة حقيقية بالمفهوم الفنى فإنها لم تكن مخططة ولا مرغوباً فيها فى ذلك الوقت عند الاشتراكيين الذين وصلوا عن طريقها إلى القوة ، ولا هى غيرت النظام الاجتماعى بطريقة أساسية ويمكن تسميتها ثورة مقيدة ، لأن الحكام الجدد كانوا خائفين من نتائج استراتيجية ثورية حقيقية)[٣] .

ويبدو أنه على حق ، إذ ليس كل حركة عنيفة هى ثورة ، وليس أدل على صدق نظره فى هذه النقطة هذه الحركات العنيفة التى حدثت وتحدث فى كثير من دول أمريكا اللاتينية ولكنها لم تأت بأى تغيرات اجتماعية ذات

---

(١) Blumer : op· cit: p: 213

(٢) Heberl : op. cit. p. 367

(٣) Ibid. P. 367

بال ، ولم تكن أكثر من إحلال جماعة حاكمة مكان جماعة أخرى فى الحكم ، ويسمى أوجبرن ونمكوف مثل هذه الحركات بالاضطرابات الحكومية ، فيقولان (بعيداً عن التغيرات السياسية الفجائية والواسعة ، ربما يكون للاضطراب الحكومى أهمية اجتماعية قليلة ، كما هو الحال فى بعض دول أمريكا اللاتينية حيث عادة التغيرات الحكومية تحدث بواسطة وسائل عنيفة ولكن بدون تأثير على المظاهر الأخرى من التنظيم الاجتماعى) [١] . ومن ثم فأوجبرن ونمكوف يتفقان مع هيبرل فى أن الثورة ليست بالضرورة تتسم بالعنف إنما المهم هو التغير الواسع الذى تحدثه ، فعندهما اصطلاح الثورة يستعمل بصفة عامه للإشارة إلى تغير سريع فى التنظيم السياسى لمجتمع ما) [٢] . كما أن هيبرل يرى (أن التغير فى علاقات القوة والنظم ، وليس مجرد العنف الذى يميز الثورة بالمعنى الاجتماعى) [٣] .

وإن كان حقيقة أنه ليس كل حركة عنيفة هى ثورة ، إلا أنه بالضرورة كل ثورة يصاحبها عنف ، إذ أن الثورة بمعناها الاجتماعى هى حركة تبغى تغيراً فى كل النظم الاجتماعية ، أى أنها تسعى لهدم النظم الاجتماعية القائمة ، وتبغى تغيراً فى كل مراكز القوة وعلاقاتها ، والمكانات والمراكز بين مختلف الطبقات الاجتماعية ومن ثم فهى بالضرورة تقابل بمعارضة شديدة من المعايير الموجودة والنظم القائمه ، ويشتد عنف الهجوم على الثورة والثوريين كلما أحس أصحاب المصالح المكتسبة الذين ستضار مراكزهم وتصاب مصالحهم بالانهيار ، ومن ثم فبالضرورة يؤدى هذا الصراع أخيراً إلى انفجار العنف بين النظم القديمة ومدارسيها وأصحاب المصالح فى بقائها ، وبين الثوريين الذين يبغون هدم هذه النظم . (فالحركة الثورية دائماً تعارض

---

(١) Ogburn & Nimkoff. op. cit, P. 616

(٢) Ibid, 616

(٣) Heberl op. cit, P. 367

المعايير الموجودة وتقترح خطة جديدة لقيم أخلاقية . ولهذا تجعل من نفسها معرضة للهجوم الخشن من المعايير الموجودة)[١]

وذلك فارق هام يميز بين الحركة الإصلاحية والحركة الثورية ، فالحركة الإصلاحية بما أنها لا تبغى تغيراً كلياً فى النظم الاجتماعية ولكنها تهدف إلى تغيرات جزئية فى نظام ما ، ومن ثم فإنها ترتكز على النظم الاجتماعية الأخرى ، بل وأكثر من ذلك فهى تعتمد على النسق الأخلاقى والمعايير الموجودة فى المجتمع لمهاجمة الجزء المراد تغييره ، ولهذا فهى تكتسب الاحترام والقبول لدى أعضاء المجتمع ، ومن ثم يكون من الصعب مهاجمتها على أى أساس أخلاقى ، وهكذا لا يكون هناك مبرر لمقابلتها بالعنف ، خاصة أنها لا تبغى إطلاقاً تغيراً فى أدوار الطبقات يؤدى إلى انهيار الطبقة الحاكمة ومصالحها ، ومن ثم لا يكون هناك ضرورة من جانب أصحاب المصالح المكتسبة أو الحركة للجوء إلى العنف ، فالحركة الإصلاحية (فى سعيها لتغير مجرد جزء من النظام الاجتماعى السائد تقبل الحركة الإصلاحية أسس أفكار ذلك النظام الاجتماعى)[٢] . ومن ثم فلا مبرر هناك لمهاجمتها لأنها لن تغير من التصورات الجمعية للمجتمع ولا تبغى تغييراً لمفاهيم الناس عن أنفسهم ، أى الأيديولوجية القائمة فى المجتمع . وإن كان بلومر يرى أن الحركة الإصلاحية قد تتحول إلى العنف (إذا امتنع عليها استخدام النظم الموجودة . هذا يميل إلى تغيير الحركة الإصلاحية إلى حركة ثورية)[١] . وهذه النظرة سليمة ، إذ أن الثورة فى هذه الحالة تعتبر تكيفاً ضرورياً للحركة الإصلاحية . وهذا ما ذهب اليه ميرتون من أن هذا النوع من

---

(١) Blumer. op. cit. p. 212

(٢) Ibid P. 213

(٣) Ibid, p. 214

التكيف يحدث بالضرورة (عندما ينظر إلى النسق النظامى كعائق فى إشباع الأهداف المشروعة ، يكون المسرح قد أعد للتمرد والثورة كاستجابه تكيفية)[١] .

وهكذا يكاد يجمع علماء الاجتماع على أن الثورة تغير مفاجىء وسريع يتصف بالعنف ويهدف إلى تغيرات جذرية فى كافة النظم . فيذهب فارس Faris إلى أنه (عندما يصبح الاضطراب فى داخل أمة حاداً وعاماً ، يكون من الصعب إقناع السكان أن حركة دنيوية محدودة يمكن أن تكون ملائمة لإصلاح كل الظروف السيئة . ويتولد إحساس باليأس ، وبأن لا شىء أقل من تغير متطرف وكامل للحكومة والمجتمع قادر على إنقاذ السكان من الظلم والبؤس غير المحتمل . وإلى المدى الذى يصبح مثل هذا الاعتقاد عاماً تكون الأرض قد جهزت للثورة)[٢] . وكذلك يذهب هيبرل إلى أن الثورة هى (تغير فى علاقات القوة ، وعادة يعبر عنها بتغير فى دستور الدولة المكتوب أو غير المكتوب وفى النسق التشريعى عامة . ويعكس الدستور الجديد والتشريعات الثورية التغيرات فى علاقات القوة والمكانات والمراكز بين مختلف الطبقات الاجتماعية)[٣] . ويعرف بلومر الثورة بأنها (تنشد إعادة بناء كل النظام الاجتماعى ... الحركة الثورية دائماً تعارض المعايير الموجودة وتقترح خطة جديدة لقيم أخلاقية ... ولذلك فالحركة الثورية دائماً تكون تحت الأرض ... فى الحركة الثورية الاتجاه هو تقسيم العالم بين الذين يملكون والذين لا يملكون ، وتنمى من الذين لا يملكون جماعة قوية ملتحمة غير معرضة للخطر ، وتجعل الحركة وظيفتها تقديم مجموعة جديدة من القيم الدينية

---

(١) Merton, R K: «Social Theory and Social Structure» Glencoe, Ill The Free Press N. Y, 1957 P. 156

(٢) Faris : op cit, P. 599

(٣) Heberl : op. cit, P. 397

الجوهرية)[١] . ويعتبرها بارسونز (أنها التغير المفاجىء فى الميزان الكبير لتوازن النسق الاجتماعى بسطوة الحركة الثورية التى تنظم بمجموعة مغايرة من اتجاهات الدوافع بالنسبة للنظم الرئيسية المنظومة)[٢].

ويعتبر ميرل أن (الثورة حركة اجتماعية التى بها توضع بعنف أسطورة جديدة محل القديمة ، الحركة الاجتماعية التى كانت فى صراع مع النظام القديم تصل إلى الإثمار وتأتى طبقة جديدة إلى القوة . الثورة هى محاولة ناجحة لإحلال مجموعة من النظم محل الأخرى، وتأسيس أنماط جديدة من المعايير)[٣] ويعرفها لندوزوجته بأن (الثورة توحى للعقل فكرة التغير الشديد والانفصال القاطع عن الماضى ، وتغيير التقاليد المرعية تغيراً كلياً ، وصنع وإيجاد نظم جديدة للحياة)[٤] . ويعرفها بارك وبيرجس (الثورة هى حركة جماهيرية تنشد تغيير السنن بواسطة تدمير النظام الاجتماعى الموجود)[٥] . ويرى كارل منهايم أن الثورة (تعنى أنه فى مكان ما هناك يكون توقع وقصد لإحداث كسر فى البناء المعقل Rationalized Structure للمجتمع . ولهذا تستلزم بالضرورة مراقبة تامة للنقطة المناسبة التى عندها يجب المخاطرة بالهجوم)[٦] . ويعرفها جيروم دافيس Jerom Davis بأنها (ردود فعل الأفراد والجماعات على الأحوال غير المشبعة فى حياتهم الاجتماعية عامة)[٧] .

---

(١) Blumer, op. cit, P. 212—213

(٢) Parsons, op cit, p 520

(٣) Merrill, op eit, P 496

(٤) Lynd, R S & H N : « Meddletown » Harcourt. Brace & Co N Y. 1949 p: 117

(٥) Park & Burgess: op cit, p 934

(٦) Manhniem op cit. p· 117

(٧) Davis. J, op cit, p. 7

إلا أن أوجبرن ونمكوف متأثرين بنظريتهما عن التغير التكنولوجى والتخلف الثقافى ، يعطيان لاصطلاح الثورة تعريفا فضفاضاً ، فالثورة عندهما (هى تغير سريع ذا حجم كبير فى الثقافة ، من الطبيعة الخالصة للأشياء أنها لا تحدث فى المجتمع الساكن ولكن فقط فى ذلك الذى يتغير . على أى حال ، الثورة هى وظيفة للاختراع ، ويحتمل حدوثها فى سلسلة واحدة أكثر منه فى كل الكائن الاجتماعى ، فتشمل السيارة على نوع من الثورة فى السلسلة المعروفة بوسائل النقل . وكانت آلة البخار اختراعاً له أهمية أكبر ، إذ ساعدت فى الثورة الصناعية)[1] . أى أنهما فى هذا التعريف ينظران إلى كمية الآثار الاجتماعية الناجمة عن عملية التغير التى يحدثها الاختراع ، وهما فى ذلك لا يفرقان بين الاختراع الاجتماعى أو الاختراع التكنولوجى وأن الأخير يحدث ثورة أيضاً .

وأخيراً يعتبرانها على خلاف إجماع جمهرة علماء الاجتماع ، أنها تحدث فى سلسلة واحدة من نوع واحد وليس فى كل الكائن الاجتماعى . ألا أنهما فى تعريف آخر عن الثورة يقولان (نمط التغير الذى عادة يسمى ثورة يحدث فى سلسلة الثقافة المسماة حكومة ، بمعنى أن اصطلاح الثورة يستعمل بصفة عامة للإشارة إلى تغير سريع وواسع فى التنظيم السياسى لمجتمع ما)[2] . وهما فى هذه الفقرة يقتربان من إجماع العلماء على أن الثورة تغير سريع وواسع ، إلا أنهما مازالا يعتبرانه لا يشمل كل الكائن الاجتماعى على ماذهب إليه إجماع علماء الاجتماع ، ويصران على أنه فى السلسلة المسماة الحكومة أو التنظيم السياسى فقط ، وهذا المعنى يبتعد عن معنى الثورة ويتوقف عند معنى الانقلاب الذى فيه تستولى جماعة على الحكم بدلا من

---

(١) Ogburn & Nimkoff, op. cit., P. 616

(٢) Ibid, P. 61

جماعة أخرى دون تغير مافى سائر النظم الاجتماعية ، إنما الثورة كحركة اجتماعية هى بالضرورة وإن كانت تبدأ فى النظام السياسى فهى بقصد تغير النظام الاجتماعى كله . فمهما لم يفطنا إلى أنه فى معظم المجتمعات الحديثة النظام الرائد[1] هو النظام السياسى ، وأن أى تغير فيه يستتبعه بالضرورة تغيرات فى النظم الاجتماعية الأخرى التى تستمد معظم أنماطها من طبيعة النظام السياسى أى النظام الرائد ، وأن النظم متشابكة وأن أى تغير أساسى فى أحدها يؤدى إلى تغيرات فى سائر النظم .

(ب) اسباب الثورة :

وغنى عن البيان أن علة الظواهر الاجتماعية علة معقدة تتضمن عوامل عدة تتضافر فيما بينها لإحداث الظاهرة الاجتماعية ، ولما كانت الثورة من الظواهر الاجتماعية شديدة التعقيد ، نظراً لأنها تهدف إلى تغيير البناء الاجتماعى كله مما يجعل عواملها تنبثق من عدم مواءمة عديد من النظم الاجتماعية القائمة فى المجتمع الذى تنفجر فيه ، ومن ناحية أخرى اختلاف تركيب البناء الاجتماعى من مجتمع لآخر ، واختلاف شدة مقاومة هذا النظام أو ذاك باختلاف المجتمعات ، إلى جانب اختلاف مدى استقرار وجوه النسق الاجتماعى التى تحاول الثورة التعدى عليه من مجتمع لآخر . كل هذه الظروف الاجتماعية أدت إلى تعدد الآراء والنظريات عن علة الثورات . إذ (طالما أن كل ثورة تقفز من ظروف خاصة وتؤدى إلى نتائج خاصة ، واسعة ومختلفة ، فإنه من الصعب عمل نظرية عامة عن الثورة)[2] .

فبينما يكاد يجمع علماء الاجتماع على أن الثورة سببها القلق الاجتماعى ، إلا أنهم اختلفوا حول أسباب هذا القلق الاجتماعى . فهناك طائفة ذهبت إلى أن علة الثورات تكمن فى العامل الاقتصادى .

---

(١) لمزيد المعرفة عن النظام الرائد يرجع إلى كتاب البناء الاجتماعى للمؤلف — مكتبة وهبة.

(٢) Heperl, op cit. P. 368

فنورمان همفرى Humphery يرى أن (الثورة إنما يحفزها الصراع والتضارب الطبقى فى الحقل الاقتصادى)[١] . وكذلك جون لويس جلن John Lewis Gillin يرى أن (البطالة على نطاق واسع تمهد للثورة وتكون جذراً هاماً من جذورها)[٢]، وكذلك أوجبرن ونمكوف من خلال نظريتهما عن التخلف الثقافى يذهبان إلى أن (الثورة عادة محاولة لتكيف تخلف طويل المدى فى الجانب السياسى . مثل هذه الثورة تشرح فى مصطلحات من المعدلات غير المتساوية للتغير فى الأجزاء المترابطة من الثقافة . فيحدث التغير أولا فى المجال المادى . وخاصة التغير فى التنظيم الاقتصادى)[٣].

وإن كان بعضهم قد ربط بين التغير فى النظام الاقتصادى والطبقات الاجتماعية فى تعليله للثورة ، فإن سوروكن Sorokin قد اتجه أيضاً فى تفسيره للثورة إلى الطبقات الاجتماعية فقط ، ولكنه ربطها بالمرونة فى نظام الطبقات، أى بالحراك الاجتماعى ومدى ماتسمح به طبيعة تكوين المجتمع من حراك . إذ يرى سوروكن أن الطبقة العليا تقصر فى التكاثر ، فى حين تتكاثر الطبقات الدنيا وبإفراط . ويؤدى هذا التفاوت إلى وجود فراغ فى الطبقة العليا يجب أن يملأه ذوو الكفاءات والمواهب من أفراد الطبقات الأخرى فى المجتمع، فإذا حدث وكانت البنية الاجتماعية فى المجتمع لاتسمح بمثل هذا التسلسل والصعود لذوى الكفاءات والمواهب من أبناء الطبقات الأخرى كما فى الهرم الاجتماعى المليء ما يسميه سوروكن بالفراغ الاجتماعى ، أدى ذلك إلى تجمع هؤلاء الموهوبين وأصحاب الكفاءات فى الطبقات الدنيا ، ومن ثم يتجمع السخط والنقمة وقوى الإجهاز على النظام القائم .

---

(١) Humphrey, N. D. : « Social Prpbleme » in Alfred lee op. cit., P. 57

(٢) Gillin I. L. : « Social Pathology » Appleton Gentury & Co. Inc, 1946 P. 523

(٣) Ogburn & Nimkoff : op. cit., P. 619

ويعتبر سوروكن أن مجرد كون الطبقة مغلقة أو مفتوحة هو السبب فى قيام الثورة، ولكن أيضاً ومهم جداً نوعية الطبقة الأرستقراطية وظروفها الاجتماعية من تناقص عدد أفرادها وتدهور كفائتهم ومواهبهم . ويدعم سوروكن رأيه هذا بسلسلة الثورات التى حدثت فى المجتمعات التى كانت طبقاتها الارستقراطية قائمة على مبدأ الوراثة أى مغلقة. وبندرة الثورات فى المجتمعات التى كانت فيها الطبقات الأرستقراطية مفتوحة ، فالمهم عند سوروكن هو العلاقة بين جمود البنية الاجتماعية من ناحية وتدهور الطبقة العليا من ناحية أخرى ـ إذ رغم تدهور كفاءة الطبقة العليا وعدم تكاثرها، فإنها كفئة حاكمة مستأثرة بمراكز القوة السياسية والاقتصادية تبذل جهوداً جبارة فى محاولة المحافظة على مراكزها، فتعمد إلى تثبيت المجتمع وتجميد بنائه الاجتماعى، ومن ثم تتمادى فى السيطرة على مراكز القوة رغم عدم كفاءتها . ومن ثم تتدهور الحياة الاجتماعية لعدم كفاءة المهيمنين على سياستها من ناحية ومن ناحية أخرى اتباعهم كافة الأساليب غير الديمقراطية فى محاولتهم القبض على مقاليد الأمور عنوة، ومن ناحية أخرى زيادة السخط والنقمة بين الموهوبين من أبناء الطبقات الأخرى. وعلى هذا يرى سوروكن أنه لابد أن يحدث الطوفان الاجتماعى حيث تندلع الثورة ويتحطم ذلك النظام الاجتماعى[1].

وكذلك يرى موزل أن الطبقة العليا فى المجتمع الذى تتفجر فيه الثورة تجد نفسها فى حالة أقلية منعزلة عن بقية المجتمع ، ويصاحب هذه الظاهرة عادة تزايد وضعف وانهيار قوة ونفوذ السلطة السياسية الحاكمة، وعدم كفاءة الفئة المشرفة على النظام الاجتماعى القائم فى أن تحافظ على الحالة الراهنة واستمرارها من جهة ، وتزايد نمو عدم رغبة الطبقات الخاضعة للنظام القائم فى استمراره

---

(١) Sorokin ; «Social and cultu al Dynamics» op cit, chap. 22

Meusel, Alfred : « Revolution and Counter-Revolution »

وتحمل وطأته من جهة أخرى . وتستمر هذه الحالة وتزداد شدة حتى تحطم الأكثرية المهتاجة النظام الاجتماعى القائم ، لأنها تجد أن ذلك النظام لايخدم إلا نفر قليل وهم الراكبون لقمة الهرم السياسى[١].

وفى الفترة التى تسبق الثورة تحدث كوارث وأزمات اجتماعية تهز المجتمع هزاً عنيفاً فتزيد من هياجه ونقمته ، ويضرب موزيل مثلا لهذه الكوارث والأزمات بحدوث قحط أو مجاعة أو حروب، وحدوث انتفاضات محلية مطردة وخاصة عند قرب هبوب العاصفة الجارفة، وحدوث مظاهرات جماهيرية صارخة واضطرابات عمالية متوالية ، واغتيال بعض الزعماء البارزين فى الدولة أو الأحزاب الحاكمة ، وتدمير بعض المبانى الفاخرة فى المدن ، ومهاجمة قلاع الإقطاعيين فى الريف . وحرق بعض الوثائق الحكومية والمستندات التى تدين الناس فى وجه من الوجوه، وإضراب منتجى المواد الغذائية وماشابه ذلك من أعمال جماهيريه ناقة . وهذه الأحداث وماشابهها بالإضافة إلى أنها تنبىء عن تلبد وتجمع قوى الإعصار تقوم بدور فعال فى نشر القلق والاضطراب والنقمة والهياج بين الناس وتقوية الميل إلى العمل الثورى وتدعيمه وإمداده بقوى الدفع والتنمية والاستمرار حتى يصبح الناس مهيئين للعمل الثورى الحاسم ، بحيث أن أية حادثة قد تكون السبب المباشر فى اندلاع الثورة .

ويرى ميوزل أن هذه الكوارث والأزمات تلعب دوراً آخر هاماً فى تحقيق حياد الطبقات الوسطى من المجتمع فى ذلك الصراع الثورى ، وفى مراحله الأولى خاصة، إن لم تدفعها تلك الحوادث إلى المشاركة والإسهام فى الثورة إلى جانب الساخطين الثائرين[٢].

ويعرض برنتون Brinton تحليلا بنائياً عن العلاقات بين النظام السياسى

---

(١) Encyclopedia of the Social Sciences. P. 368—369

(٢) Ibid, P. 370—27.

والنظام الاقتصادى ونظام الطبقات، ويستخرج من تفاعل هذه النظم الثلاثة علة جديدة للثورة. إذ يعتبر برنتون أن الروح التى تنبعث منها الثورات ليس البؤس الشديد والنكبت الشديد للجماهير ، بل بالعكس أنه عادة هناك فترة تسبق الثورة، حصلت فيها أكثر الطبقات انخفاضاً على مكاسب ملحوظة فى الدخل والتأثير. إنما تنشأ الثورة من عدم الرضا عن الحكومة نفسها .وخاصة فى بعض الوجوه المضطربة للوظائف الاقتصادية للحكومة، ولربما يكون الناس أكثر نجاحاً عن أى وقت مضى بينما حكومتهم مفلسة ، ولقد أوضح أن الثورات الإنجليزية والفرنسية والأمريكية والروسية كانت الضرائب موضوعاً هاماً فى كل حالة،ولم يكن الجوع هو الشكوى الكبرى ولكن الظلم وعدم العدالة الاجتماعية ، فلم تكن الحكومات تنجز وظائفها بكفاءة كما يجب ، ومن ثم ينشأ إحساس خطير بالضيم .

كما يوضح برنتون ذلك فى قوله (وهكذا رأينا أن آلاماً اقتصادية معينة، عادة ليست فى شكل كرب اقتصادى ، ولكن بالأحرى إحساساً لدى بعض رؤساء جماعات المشاريع أن فرصتهم فى الاستمرار فى هذا العالم يحدها ظلم التنظيمات السياسية، ويبدو أن ذلك أحد رموز الثورة. بالطبع هذه المشاعر لابد أن ترفعها إلى ذروة التأثير الاجتماعى الدعاية وعمل الجماعات الضاغطة، والمقابلات الشعبية . وكما سنرى ، هذه الآلام ، لابد من العمل على احترامها، ولكن ما هو واقع يعتبر قيداً على جماعة ناجحة ، أو على جماعات مماثلة متعددة ومن ثم يبدو هذا كتنظيم غير عادل نحو كل فرد فى المجتمع . فيثور الناس جزئياً أو حتى كلياً نظرا لأنهم عوقوا . لاتستطيع أن تعمل الثورة بدون كلمة عدالة)[1] .

---

(١) Brinton Crane : «The Anatomy of Revolution» W. W Norton & Comp Inc N. Y. 1933 p 46.

ويطلق إدواردس Edwards على ذلك النوع من الحكومات التى ذكرها برنتون اصلاح التنظيم المخيب أو المعوق balked disposition ، حيث تظهر فيه الحكومة كآلة لا تعمل بكفاءة ، وفشلها يصبح ظاهراً للسكان بطرق عديدة ، ومن ثم (يأتى الناس إلى الشعور بأن تطلعاتهم الشرعية ومثلهم أصبحت مضغوطة وممنوعة ، حتى أن الرغبات الداخلية الحقيقية وطموحهم قد عوق ومنع ، وهم لا يعلمون لماذا أو كيف . وتصبح خيبة الأمل وعدم التشجيع منتشراً . ويصبح العمل غير مشبع وعمل لعدد كبير من الناس . وتصبح الحياة ذاتها تافهة وبلا هدف . وخلال المجتمع كله تجرى حاجة قوية لمثيرات جديدة وحوافز جديدة . والقلق الذى كان فيما سبق بلا داع أو داع قليل يصبح وقد تحدد ووضح إلى درجة ما . ويتحقق الناس تدريجياً أن هناك شيئاً متعفناً فى الحكومة . ودرجة الوضوح تظل خفيفة. وتكون الصفة السائدة مجرد الاستياء من روتين الحياة القائم ، ولكن هذا الاستياء يبتدىء فى أن يصبح عدوى)[1] .

ويؤيد هيبرل إدواردس فى (أنه من الخطأ الادعاء بأن الفقر والبؤس بذاتهما يسببان الثورات . فالطبقات الأفقر والأكثر عوزاً نادراً ماتبتدىء ثورة ، ولو أنهم قد يعطونها التأييد . فالجماعات ذات النشاط الثورى هى عادة تلك الطبقات أو الطبقات الفرعية التى لأنها لم تعد فقيرة ، تشعر أنها مقيدة تقييداً غير لائق وليس فى محله فى مناشطهم الاقتصادية أو فى مشاركاتهم فى القرارات السياسية ، مثل ضرائب فادحة دون رؤية عائد لها ، لأن الطبقات الدافعة للضرائب يمكن أن تنتج موقفاً ثورياً)[2].

ثم يذكر هيبرل أن ثورة حقيقية لا يمكن أن تبتدىء إلا إذا حدثت

---

(١) Edwards, op. cit., P. 30

(٢) Heberl, op. cit. p. 368

ظروف معينة وهى (أولا) يكون هناك طبقة اجتماعية أوطبقات اجتماعية غير راضية عن توزيع القوة السياسية الموجودة ، ذلك عادة يحدث لأن الطبقات تشعر بالتناقض بين أهميتها الواقعية فى المجتمع ومركزها القانونى والسياسى (ثانياً) ثورة ، ولو أنه يحملها أساساً طبقة اجتماعية ، لابد أن يؤيدها عدد كاف بين الجماهير الواسعة غير السعيدة فى الطبقات الاجتماعية الأخرى (ثالثاً) الجماعات التى تدير الحكومة يجب أن تعانى فقدان الثقة فى أحقيتها لمركزها ، وفى كيفية التبرير للنسق الاجتماعى الموجود، وفى إمكانية مقاومة ثورة شعبية)[١] .

إلا أن هيبرل يعود مرة ثانية ويقرر أهمية الطبقات المعوزة فى إحداثها للثورة إلى جانب الأسباب السابقة . فيذكر أن (الطبقة الحاكمة دائماً فى موضع الخطر عندما يكون فى المجتمع عدد كبير من المنبوذين declasses ، بمعنى أسر معوزة وأفراد مسارهم المهنى بجمد أو يخيب بالظروف الخارجة عن إرادتهم)[٢] . ويوضح أن مثل هذه الظروف يمكن أن تكون نتيجة للتغيرات الاجتماعية، (ظروف مثل هذه لولم تكن أنتجتها حرب يمكن فقط أن توجد كنتيجة للتغيرات البطيئة فى الاقتصاد وفى البناء الاجتماعى للمجتمع)[٣] .

كما أنه يذهب إلى أن (ثورة حقيقية هى عادة الحلقة الأخيرة فى سلسلة طويلة من الأحداث أو الوجه الأخير لعملية ثورية . فإذا عملت التغيرات فى توزيع القوة تكيفاً تدريجياً للظروف الاقتصادية الاجتماعية المتغيرة ، فإنه يمكن تجنب ثورة عنيفة . وبقدر استمرار تأجيل التكيف النظامى الذى

---

(١) Ibid. P. 368

(٢) Ibid. P. 369

(٣) Ibid. P. 369

تتطلبه التغيرات فى العلاقات الواقعية الاقتصادية والاجتماعية بين الطبقات ، كلما كانت الثورة أكثر عنفاً)[١] .

وأوجبرن يذهب أيضاً إلى ما ذهب إليه هيبرل من أنه كلما أجلت التكيفات الملائمة للتغيرات كلما كان الانفجار الثورى عنيفاً (فما الثورة السياسية إلا فقط محاولة لإحداث تكيف جوهرى تأخر طويلا . درجة العنف تكون متناسبة مع كمية سوء التكيف)[٢] أى أن هناك تناسباً طردياً بين تأجيل التكيفات الملائمة ودرجة عنف الثورة .

ذلك أن الطبقة الحاكمة تتخذ كافة السبل غير الديموقراطية لمحاولة تجميد المجتمع . فهى تضع يدها على كل التنظيمات السياسية بمختلف تنظيماتها الحكومية أو البرلمانية أو أى تنظيم سياسى آخر ، وذلك عن طريق وضع المنتفعين من هذا النظام ، وأصحاب المصالح فى بقائه واستمراره فى المراكز القيادية بغض النظر عن كفاءتهم ، وتتضافر جهودهم جميعاً على مقاومة عمليات التغير الاجتماعى الجارية فى المجتمع ، وتمنع الانتقال الشرعى بين الطبقات .

فى كل نسق اجتماعى هناك طبقة أو طبقات حاكمة ، فى كلمات أخرى، أى طبقة تحصل على إدارة المجتمع تحدد شكله أو نسقه السياسى . ولهذا فالطبقة الحاكمة لها القوة . أى سوف تستخدم القوة لتحويل المجهودات الاجتماعية إلى منافعها الخاصة أو مكاسبها ؟ فليس هناك طبقة يمكن الثقة فيها لحكم مجتمع مع توفير العدل للكل ، ولا تستخدم قواها لمصالحها الخاصة ، إنه من المتوقع أن تفعل ذلك إلا إذا وأقفتها نظم اجتماعية تدعو للعمل ضد المصالح والقوى المستغلة .

---

(١) Ibid. p. 369

(٢) Ogburn & Nimkoff, op cit p 617

(كانت الطبقات الحاكمة فى القرون الوسطى حربيين وكنسيين ، وقد استخدموا كل قواهم لتعظيم أنفسهم على حساب الطبقات الأخرى . ويحكم المجتمعات الحديثة الطبقات المتوسطة . ففى رحاب البرجوازية يجب أن يقال إنها اخترعت النظم الاجتماعية للحرية المدنية التى تؤمن للكل الأمان الشخصى والملكية. ولهذا ، لم يشكلوا دولة لأنفسهم وحدهم ، ولكن دولتهم هى التى فيها أى طبقة لا تخشى الاستعمال العدوانى للقوة السياسية . على أى حال ، يظهر تاريخ القرن التاسع عشر بوضوح قوة الرأسمال فى الدولة . فوجدت تشريعات وقوانين وحريات خاصة ، بوسائل تشريعية لتسهيل استخدام قوة الدولة من أجل المنفعة المالية للأقلية . ففى النصف الأول من هذا القرن فى الولايات المتحدة ، استخدمت بنوك الإصدار إلى درجة متطرفة من أجل المصالح الخاصة . التاريخ سيء للغاية ، فما هو إلا استمرار لانحدار الحكومة الشعبية ، إن القوة لا يمكن وجودها ، أو غير موجودة فى النسق لتضبط هذا الاستعمال السيء وتمنع هذا الفساد لقوة الدولة)[1] .

فإذا أساءت الطبقة الحاكمة استخدام هذه القوة وسخرتها فى سبيل مصالحها ، ذلك بالضرورة يكون له آثار بعيدة المدى فى طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الطبقات المختلفة نتيجة انقسامها فى النهاية إلى طوائف اجتماعية أو طبقات اجتماعية مغلقة . ومن ثم تتحول العلاقات الاجتماعية الجمعة التى تعمل على تكامل المجتمع إلى علاقات منفرة تنخر فى عظام المجتمع وتعمل على هدمه وتدهوره.

وكذلك تتسع المسافات الاجتماعية بين الطبقات فى المجتمع ويشتد التمايز فيما بينها ، وتتزايد حدة التباين الطبقى ، وتصبح الطبقة الحاكمة تدريجياً من حيث علاقاتها ببقية المجتمع كالفئة الفاتحة المتغلبة ، التى ترى أن واجب الطبقات الأخرى طاعتها والخضوع لها والاعتقاد فى تفوقها عليهم ، والقيام

---

(١) Sumner op cit p 169

بخدماتها رغم أنوفهم . ومن طبيعة هذا التمايز أن يزداد بتميز حدود هذه الفئة وتبلورها فيشمل كل ما يسميه علماء الاجتماع رموز النفوذ . وتدريجياً تصبح فوارق ومميزات المكانة الاجتماعية فى النهاية مترسبة فى القيم والتقاليد والمعايير الاجتماعية . ومن ثم تصبح المعايير التى تضبط المجتمع معايير فاسدة .

ولكن التغيرات الاجتماعية مستمرة ما استمر المجتمع ولا يمكن لأى قوة مهما كانت أن توقف عملية التغير ، وكل ما تستطيعه الفئة الحاكمة هو كبتها ولكن إلى حد ما . وهكذا يصبح هناك عوامل التغير الاجتماعى التى تعمل على تغيير مفاهيم الطبقات عن دورها فى المجتمع وتناسب ذلك الدور مع مكاناتها فى ذلك المجتمع فتتغير أنساق قيمها ومعاييرها ، بينما الطبقة الحاكمة تقاوم فى عناد وإصرار عمليات التغير الجارية ، وتعمل تلك الطبقات المتسلطة على المحافظة على الأنساق القديمة التى فقدت اهتمام المجتمع ولم يعد أحد يتمسك بها ، ومن ثم يختل التوازن ويحدث موقف من سوء التكيف . وتكيف أنساق القيم والمعايير وكذلك التكيفات فى التنظيم الاجتماعى للتغير الحادث فى المجتمع أمر ضرورى إذا أريد للمجتمع البقاء .

فإذا كانت الأقلية المتسلطة فى المجتمع لا ترغب فى عمل التكيفات الضرورية ، فإن هذه التكيفات لابد وأن ينجزها العمل المتماسك للجماعات الأخرى أى بواسطة ثورة . إذ مهما مارست الفئة الحاكمة من وسائل الكبت فإن هذا لن يطفىء نار السخط التى تكمن تحت السطح ، وجو عدم الثقة المتبادل الذى وجد سوف يؤدى إلى زيادة عدم تكامل المجتمع .

وفى مثل هذا النوع من المواقف الاجتماعية تصبح الثورة هى القوة الاجتماعية التى تنقذ المجتمع من الهرم . ويعتبر هذا من أهم الأسباب التى تفصح عن مدى صعوبة استمرار كبت ثورة تكون أهدافها متجانسة مع اتجاهات التغير الاجتماعى التى تكونت فى رحم المجتمع . فمثلا (تعزى

الثورة الفرنسية إلى حقيقة أن تغيراً كبيراً قد حدث فى توزيع القوة الاقتصادية بين الطبقات وفى معايير الطبقات التى تتعلق بالقوة الاقتصادية . كل النظم الاقتصادية لأى دولة حديثة هى محافظة بمعنى أنها أبقت وكابدت ما يكون وما كان وتقاوم التدخل والتغير . الصورة التاريخية هى عادة أن سوء استعمال يحافظ عليه، ويبدو الإصلاح بلاأمل، بسبب قوة النظم والعادات الموجودة ، وعلى حساب الرفاهية الاجتماعية التى أصبحت تقليدية . ولقد سبق دارسو التاريخ إلى الاعتقاد بأن أى اصلاح أو ثورة كحل لنسق الاستجابات الموروث يستحق كل ما قد تتكلفه . ولهذا أصبح يعتقد بعض الدارسين للتاريخ فى الثورة كقوة اجتماعية مقيدة)[1] .

(ج) دور المثقفين :

ورغم أن دراسة الثورات وخاصة فى العصر الحديث قد أوحت إلى كثير من علماء الاجتماع ، أن الثورة تسير مع خطوط الطبقات ، وبالذات طبقة العمال فى ثورات القرن العشرين ، إذ أن معظم تلك الثورات هى ثورات اشتراكية ضد الرأسمالية ، أى ثورة العمال على طبقة البرجوازية والأرستقراطية . وكذلك أدى إلى هذا الإيحاء أن تكامل الثورة مع وعى طبقى لجماعة معينة يؤدى إلى سهولة حشد قوى الثورة ، إذ أن الطبقة محشودة أصلا فى ظل الوجدان الطبقى للعمال أو الفلاحين ، حتى أصبح من المعتاد فى السنين الحديثة التوحيد بين الطبقة العاملة والحركات الاجتماعية وتجاهل دور الطبقات الأخرى .

وفى الحقيقة أنه مهما كانت الرغبة قوية لدى العامة من الناس فى تحسين الظروف الاجتماعية ، ومهما كان انعدام الطمأنينة والأمن حاداً بين الناس ، ومهما كانت المظالم الاجتماعية الواقعية منها والمتصورة التى يعانيها الناس فى

---

(١) Sumner, op cit p 167

نظام اجتماعى ما سيئة إلى أبعد حدود السوء وغير مشبعة وتثير السخط والتبرم ، بما يجعلهم يكرهون النظام الاجتماعى القائم ، فلن تكون كراهية ذلك النظام الحادة فعالة إلى الدرجة التى تدفع الناس للقضاء عليه . إذ سيعتبر الناس أن هذا قدرهم ، ولا يعرفون كيف يتصرفون حيال هذا النظام البادى الفساد . إذ أن للعامة من الناس سواء من العمال أو الفلاحين ، أساليب سلوكهم فى التفكير والعمل ، وهى مرتبة إلى درجة كبيرة على أسس من الأساطير والتقاليد والأعراف ، ذلك يرجع إلى أن طبيعة أعمالهم لا تدربهم فى مواقف حياتهم اليومية على صياغة قرارات عقلية تختص بالأعمال التى يمارسونها ، فهى أعمال لا تجبرهم دائماً على عمل قراراتهم الذاتية أو تحليل المواقف إلى عناصرها ليعرفوا من وجهة نظرهم الشخصية ما هو صواب أو خطأ . ومن ثم فهؤلاء الناس غير قادرين وحدهم عادة على تكوين الآراء المتعلقة بالوجوه السياسية والاقتصادية والمكانات والأدوار التى يشغلونها ويلعبونها ، وغير قادرة أيضاً على الربط بين هذه الآراء وتحويلها إلى مواقف ثابتة منسجمة وأعمال منظمة تعبر عن سخطهم ونقمتهم على ذلك النظام المجحف بمكاناتهم .

وهكذا لا بد من قيام فئة معينة لديها القدرة على إثارة هذه النقمة وتنظيمها وتغذيتها ، ثم قيادتها . إذ أن (الثورة الناجحة تتطلب نوعاً من التنظيم . فالجماهير ، غير المنظمة ، وتجمعات الجمهرة والدهماء لا يمكن أن تبتدىء أو تقوم بثورة)[1] (وأكثر من هذا ، تلقائية العمل قد يساء فهمها ، يكون الجمهرة اتجاه وتكون خاضعة لبعض الضبط والقيادة ، إنه فى الحقيقة ما يجعل من الجمهرة ذات تأثير هو تنظيمها واتجاهها ، إنها عادة تتضمن بين أعضائها

---

(١) Heberl op cit p 371

ليس فقط الطبقات ذات الدخل المنخفض والمحرومين ، ولكن أيضاً رجالا من ذوى السمعة والتأثير)[١] .

ذلك مالفت نظر علماء الاجتماع إلى أهمية دور المثقفين ، بل اعتبروا أن من أهم علامات الثورة هى ظاهرة تحول ولاء المفكرين . فيذكر إدواردس (أنه لا بد من ظهور ظاهرتين فى المرحلة التى تسبق الثورة هما ، انتقال وتحول ولاء المثقفين . وتكوين الأسطورة الاجتماعية)[٢]. وربط إدواردس بين الظاهرتين يتضمن الإشارة إلى أن المثقفين هم صانعو الأسطورة الاجتماعية المحركة للثورة ، ويتضح هذا من تحليله لعملية تحول المثقفين ، فهى عملية تحول فكرى من تأييد فكرة سابقة أو الأسطورة التى كانت سائدة قبل الثورة ، الى تأييد فكرة جديدة (فبينما من قبل كان كل المحررين يبررون النظام القديم يتحولون الآن بسبب استياء الجماهير ، وإذا لم يحدث هذا ، تنشأ جماعة جديدة من المحررين ويحصلون على الحب الشعبى[٣]) (ويؤيد المفكرون فى المجتمع الطبقات الحاكمة وأسطورتهم السائدة خلال الفترات العظيمة . فمنذ أمد بعيد قبل قيام الثورات الحالية ، بدأ الأذكياء اكتشاف ضعف الأسطورة القديمة ، ومن ثم يتجمعون على أعلام جديدة . هذا التغير للحلفاء مهم جداً ، كثير من المفكرين فقدوا حياتهم فى الصراعات الثورية التالية[٤]) . ويذكر فردريك هرتز أن الدور الرئيسى فى كل الحركات الاجتماعية التى عرفناها هو الدور الذى لعبته الطبقات المثقفة من أساتذة وطلاب ومحامين وموظفين وكتاب وأطباء ومعلمين وكتاب وصحفيين ، بل أن بعض هؤلاء كانوا القوة المحركة فى كل الحركات

---

(١) Faris op cit p 604

(٢) Edwards op cit p 90

(٣) Ibid p 91

(٤) Mirrell : op cit p 497

القومية والثورات الوطنية ، بينما كانت الجماهير من عامة الناس آلات فى أيديهم يحركونهم ويوجهونهم كيف شاءوا[١] .

ذلك يرجع إلى أن هذه الطبقة دون غيرها من طبقات المجتمع ، ثقافتها تجعلها مطلعة على مختلف النظريات والمذاهب والآراء ومختلف النظم وأنواع الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . (فبالرغم من الانتشار الديموقراطى للمعرفة ، فالمشكلة الفلسفية والسيكولوجية والاجتماعية ، التى سبق أن ذكرناها قد اقتصرت على أقلية عقلية نسبياً . هذا القلق العقلى أتى تدريجياً تحت أنظارهم نتيجة لتميزهم المهنى ، واعتبرت المشكلة عمل خاص بهذه الجماعات وليس كل الطبقات)[٢] .

إن هذه الثقافة ونوع المهن التى يمارسونها . يسرت لها النظرة المقارنة إلى درجة لا تتيسر لسواها من الطبقات الأخرى فى المجتمع (فالتاجر والمهندس والمفسر والعاقل ، كل فى أسلوبه الخاص يشغل موقعاً يتطلب قرارات عقلية تختص بالأعمال التى تصنعها الحياة اليومية ، وفى سبيل الوصول إلى هذه القرارات ، من الضرورى دائماً للفرد أن يحرر أحكامه من أحكام الآخرين وأن يفكر خلال مواضيع معينة بطريقة عقلية من وجهة نظر مصالحه الخاصة ، هذا لا يصدق بالنسبة للفلاحين من الأنماط القديمة ، ولا أيضاً بالنسبة لجمهور ذوى الياقات البيضاء المنبعث حديثاً الذين يشغلون مراكز تتطلب تدريبا قليلا وليس تعمقا من النوع النظرى)[٣] .

إن هذه الخاصية تتيح لهذه الفئة النظرة المقارنة ، مقارنة النظام

---

(١) Hertz F: Nationalty in History and Politics Kigan Poul ,Trcnh Trubner & Co: London 1954 P 270.283

(٢) Manuiem oP cit P 30

(٣) Idid P 31—32

الاجتماعى القائم بغيره من النظم فى العالم ، ومن ثم تصبح أعلم من غيرها بنقائص وعيوب النظام الاجتماعى القائم ، ومحاسن النظم الاجتماعية الأخرى ، وأكثر حساسية لتلك النقائص وأشد تأثراً بها ، ومن ثم أشد ميلا للعمل على تغيير تلك النظم الفاسدة .

وهكذا يتبلور دورهم فى العمل على إثارة النقمة بين الناس على النظام الاجتماعى القائم ، وتركيز هذه النقمة على مواطن الضعف فى ذلك النظام ، وتغذية الكراهية والحقد عليه ، والحفز على التعبير عن هذه الكراهية وذلك الحقد وتبريرهما ، وصياغة الأسطورة الجديدة ، وتنظيم هذا الحشود وتوجيهه لهدم النظام القائم ، أى وضع أيديولوجية الثورة واستراتيجيتها وتكتيكاتها ، وإقامة بنائها وتنظيمها .

ذلك الدور الذى يؤديه المثقفون يوضح أنهم صانعو الثورات ، إذ أن الثورة الحقيقية هى الثورة التى تقوم على أساس أيديولوجى ، أى تكوين أيديولوجية جديدة ، حتى أنه يكاد يكون هناك إجماع بين علماء الاجتماع أن لا ثورة بلا أيديولوجية أو عنصر يوتوبى أو أسطورة جديدة . فيذهب ميرل إلى (أن الثورة حركة اجتماعية التى بها تحل بعنف أسطورة جديدة القديمة)[١] . ويذكر بارسونز (ما زال صحيحاً أن معظم الحركات ، إن لم يكن كل الحركات المتطرفة فى العالم الغربى قد اشتملت على عنصر يوتوبى قوى)[٢] . كما أن موزل يؤكد على (أن الثورة لا بد أن يسبقها أيديولوجى ثورى ، يكون سبباً ممهداً لحدوثها)[٣] وكذلك العلامة جورج سوريل وهو أول من استخدم اصطلاح الأسطورة الثورية ، فيذكر أن (الرجال الذين

---

(١) Merril: op. cit. P. 496

(٢) Parsons: op. cit, p. 526

(٣) Meusel, op. cit, p. 369

يشاركون فى الحركات الاجتماعية الكبرى يصورون لأنفسهم سلوكهم فى المستقبل فى شكل تخيلات من المعركة ، ويؤكدون لأنفسهم نصرة دعواهم ، وأنا أقترح أعطاء اسم أسطورة Myth لهذه التركيبات . تلك المعرفة التى أعطت أهمية كبرى للتاريخيين والإضراب العام للنقابيين ، هى الأساطير)[1] .

(د) نجاح الثورة :

وعندما تكون العمليات الأولية قد جرت مجراها ويكون المسرح الاجتماعى قد أعد للصراع الحقيق ، فإن الأمر لا يتطلب إلا أقل اضطراب أو شغب ليدفع بالحركة إلى الثورة الفعلية ذاتها . فعندما يبلغ أعضاء المجتمع درجة من الكراهية للنظام القائم ، ويضطرب النظام السياسى ويسوده الارتباك وتتسم تصرفاته بالعشوائية وفى كثير من الأحيان بالغباء ، يبدو اشتعال الثورة وكأنه تلقائياً ، والحوادث مثل هجوم الباستيل فى فرنسا ، وحادث بتسمبرج فى روسيا ، وحريق القاهرة فى مصر ، تثبت هذا الوجه النشط المؤثر .

ويلاحظ أنه ليس من الضرورى أن يعرف القائمون بمثل تلك الحوادث أن الثورة قد بدأت ، ولا أيضا الحكام المتربعون على قمة التنظيم السياسى . إنما الحوادث التى تتلو ذلك هى التى تظهر أن الثورة قد بدأت فعلا . وما تلك الحركات وحوادث الشغب والغوغاء إلا رمزاً للثورة (فاندلاع الثورة عادة يأخذ شكل رمزى أى أنها تتميز بعمل رمزى للثوار مثل سقوط الباستيل الذى كان يعنى عدم استطاعة الملكية السيطرة على المجتمع ، والباستيل يمثل النظام الذى تقوم ضده الثورة)[2] . ويقول إدواردس (تؤدى

---

(١) Sorel G. «Reflexions sur la violonce» Cited by Heberl op: cit, P. 12

(٢) Merril: op. cit, p. 498

الغوغاء فعلا جزءاً جوهرياً فى أزمات ثورية معينة ، ولكن هذه الأزمات قليلة وفى بعض الثورات الهامة لم تحدث على الإطلاق . حتى الثورة الفرنسية حيث كان عمل الجماهير أكثر وضوحا . فقد أدت جزءاً هاماً فقط على مدار خمسة أيام أو ستة أيام خلال عدة سنين)[1].

ومثل هذه الحوادث تتركز وظيفتها فى الحركة الثورية على إقامة الدليل على عدم قدرة الحكومة أى النظام السياسى ، على السيطرة والضبط على المجتمع ، وذلك يعطى الثوار الثقة أو حتى على الأقل التأكد من النجاح ؛ ومن ثم فقادة الثورة يحسنون استغلال هذه الحوادث . (وتعنى الثورة أنه فى مكان ما هناك توقع وقصد لإحداث كسر فى البناء المتعقل للمجتمع . ولهذا يستلزم بالضرورة مراقبة تامة للخطة المناسبة التى عندها يجب المخاطرة بالهجوم . . . ، طالما يحتاج الإنسان ويرغب فى الثورة ، لا يستطيع السماح بأن تمر مثل هذه اللحظة المناسبة المفضلة ، التى أثناءها يمكن إحداث الكسر)[2].

وذلك يعتمد على مرونة التكتيك ، لأن التكتيكات دائماً تعتمد على طبيعة الموقف الذى تعمل فيه الحركة من ناحية ، والخلفية الثقافية للحركة من ناحية أخرى . هذا الاعتماد الوظيفى للتكتيكات على نوعية الموقف ذات أهمية بالغة . فالتكتيكات تأخذ شكلها من طبيعة الموقف ومتطلبات الظروف المحيطة بها ، ومن ثم فهى مرنة ومتغيرة بالضرورة ، حتى يمكنها النجاح فى استغلال هذه اللحظات وتوجيه تلك الحوادث لتستفيد منها بأكبر قدر ممكن لتحقيق هدفها والإجهاز على الحكومة القائمة ، أى النظام السياسى القديم .

---

(١) E dwards: op cit: p: 100

(٢) Mannhiem, cit, p. 117

فعند اندلاع الثورة تتوحد صفوف أعضاء الحركة ويبدو وكأنهم كتلة واحدة متراصة . من شأن هذه الظاهرة أن تجعل الحركة بمنجاة من المعارضة (فالاتحاد فى جماعة متماسكة يمكن الدوافع الانحرافية من الإفلات من جزء كبير من الجزاءات)[1] .

إن نجاح "ثورة من شأنه أن يجعل المتمسكين بالنظام الذى كان قائماً فى المجتمع ، يشعرون بخطأ مواقفهم ، بحيث يندر أن يكون من بينهم من يستطيع أن يعتقد اعتقاداً واضحاً بصحة مثله التى كان متعلقاً بها فى المدة التى سبقت الثورة . كأنهم لايجدون المبررات الواقعية التى تبرر استمرار تمسكهم بمثلهم فى الظروف الثورية المحيطة بهم . ذلك بالإضافة إلى أن أغلب المحافظين فى النظام المندحر الذى أجهزت عليه الثورة ، يتبنون بدرجات متفاوتة حسب مواقفهم الاجتماعية فلسفة الثورة المنتصرة ، كما أن كثيراً من المنقلبين إلى التيار الجديد ، تيار الثورة ، يتناسون ماضيهم ويتغافلون عن مواقفهم القديمة ويتنصلون من وجوه ماضيهم التى تعارض ما كشفت عنه الثورة منتحلين لذلك المبررات ، وأن هذا كان يرجع إلى خداع العهد الماضى ودعايته المضللة ، وليس عن سوء نيتهم .

(هـ) الظروف والازمات التى توجهها الثورة :

ويعنى نجاح الثورة إحداث تغيرات كبرى وأساسية فى العلاقات الاجتماعية بين الطبقات ، حيث تتحطم سيطرة الطبقة المسيطرة فى المجتمع وتتحرر الطبقات الأخرى من الاستغلال الاقتصادى الذى كان يؤيده الضغط السياسى . ذلك يعنى تغير مصادر السلطة السياسية وتركيزها فى جماعات أو طبقات اجتماعية غير الطبقات والجماعات التى كانت مستأثرة بها قبل الثورة ، (فلا

---

(١) Parsons. op cit, p, 22

تؤدى الثورة الحقيقية فقط إلى إعادة توزيع القوة بين الطبقات الاجتماعية، ولكنها تؤدى إلى تغير فى كل نسق التمايز الطبقى . والطبقة المنتصرة ذاتها تتوقف عن أن تكون ما كانت عليه قبل الثورة . الثورة الفرنسية يازالتها النظم السياسية العفنة كشفت عن حقيقة أن المجتمع الفرنسى قد تغير من مجتمع جماعات مراتب إلى مجتمع طبقات حديثة . البروليتاريا التى بدأت الثورة فى روسيا لم تعد بروليتاريا اليوم ، كل البناء الطبقى الذى كان قبل الثورة فى المجتمع الروسى قد حطمته الثورة)[1] .

وغنى عن البيان أن أصول النظم الاجتماعية ترجع إلى الأزمات ، والثورة ولا شك أزمة الاجتماعية من هذه الأزمات التى تتمخض عن نشأة نظم اجتماعية جديدة ، وطبقات حاكمة جديدة ، ومواقف وقيم وعقائد ومذاهب اجتماعية وسياسية جديدة ، وظهور أنماط سلوكية جديدة . ومن ناحية أخرى تواجه الثورة مشاكل اجتماعية لاحصر لها .

(فبعد انفجار الثورة تأتى فترة لا يوجد فيها معايير ، القديمة قد تحطمت والجديدة لم تتشكل بعد . وتعطلت الشعائر الاجتماعية وأوقفت الجزاءات القديمة، والجزاءات الجديدة ليس لها القدرة على العمل أو لم يعرفها الشعب بعد . وهى تحتاج وقت لتصبح قائمة ومقررة ومعروفة . ولا تعرف الجماهير فى الثورة بالتأكيد ما يجب عليهم فعله . فى فرنسا فى ظل النظام العسكرى القديم ، كانت الطقوس الاجتماعية كاملة تماماً ومؤسسة تماماً . وفى الثورة تهدمت هذه الطقوس وحدثت فوضى اجتماعية . فى أحسن الحالات ، تكون كل ثورة متلازمة مع هذه الفوضى أو الهرجلة فى المعايير . لقد حدث هذا فى المستعمرات الأمريكية . ويتوقع قادة الثورات أن يدفعوا الشعب إلى أعلى ،

---

(١) Heberl: op. cit, P. 372

إلى معايير جديدة بواسطة مبدأ أو أكثر من الفلسفة الاجتماعية أو السياسية، ويوضح تاريخ كل اتجاه أن المبادىء لا تصنع المعايير . كل ثورة تعانى من أزمة عند "نقطة التى يجب أن يبتدىء البناء عندها)[1] .

تلك الأزمة التى تعانى منها الثورة عند ترليها وهى الضبط فى المجتمع الذى انتصرت فيه على النظام القديم المنهار، ترجع إلى حقيقة أن الثورة تواجه أكبر عملية تغير اجتماعى يكابدها مجتمع . وعلى قدر عملية التغير التى تريد الثورة إجراءها تكون المشاكل التى تواجهها . وتنقسم هذه المشاكل إلى داخلية، أى تتعلق بذات مجتمع الثورة، أى نظمه وممارسى هذة النظم . ومشاكل خارجية أى تتعلق بعلاقات ذلك المجتمع بسائر المجتمعات المحيطة به والمتفقة أو المختلفة مع أيديولوجية الثورة .

والمشاكل الداخلية التى تواجهها الثورة تتلخص فى أن الثورة إبان مراحل نموها لا تحول كل أعضاء المجتمع معتنقين لأيديولوجيتها ومؤمنين بأسطورتها، إذ لا يكون التأثير الاجتماعى للثورة واحداً عند كل أعضاء المجتمع، ولكنه يختلف باختلاف مواقف هؤلاء الأعضاء وقيمهم وما يرونه فى أيديولوجية الثورة من تطابق مع أهدافهم .

فجماعات المثقفين وطبقة المفكرين من العمال والفلاحين الذين يرون أن الثورة كسلوك مؤثر تتلاءم مع نظام قيمهم . إذاً فمحتوى السلوك المؤثر هو المعنى هنا وهو الشىء الجوهرى . وتستخدمه تلك الجماعات لأنهم يجدون فيه فائدة فى حل مشاكلهم، ويتجانس مع طبيعتهم، أى أنهم يتقبلون الثورة على أنها تؤدى إلى رفع قيمهم إلى أعلى درجة . وتؤدى صفات ومميزات الثورة كهيئة مؤثرة دوراً هاماً فى الاندماج، ولكن البعد الرئيسى هنا هو

---

(١) Sumner: op. cit, P. 86

صدق الثورة أى هو علاقتهم بالمحتوى . أى أن الاندماج بين هذه الجماعات وبين الثورة يتم على أساس عقلى ، فهذه الجماعات ترى فى أنماط السلوك فى التفكير والعمل التى تحتويها أيديولوجية الثورة ، أكثر حفظاً لقيمهم من تلك الأنماط التى كانت سائدة فى المجتمع قبل الثورة .

ومعنى الاندماج هنا ليس مساو للتعقل ، بالرغم من أن وصف العملية قد جعل للتعقل المقام الأول ، إنما المهم هو استخدام المعتقدات أو مبادىء الثورة بسبب تطابقها مع نظام القيم ، وقد يكون نظام القيم هو أساسياً لامعقولا . ويتبع ذلك أن السلوك الذى يستخدمه الاندماج هو بطريقة ما — عقلى أولا — يتكامل مع قيم تلك الجماعات ويصبح جزءاً من نظامهم . مثل هذا السلوك يصبح تدريجياً مستقلا عن المصدر الخارجى . ولا يعتمد إظهاره على رؤية أو مراقبة الثورة كهيئة مؤثرة . ولكن يعتمد على مدى توافق القيم الموجودة أثناء التطبيق ويزداد الاندماج بين هذه الجماعات وبين الثورة ، كلما كانت قوة الثورة كهيئة مؤثرة قائمة على المعقولية والصدق .

وتملك الثورة المعقولية إذ كانت مواقفها من مبادئها صادقة وثابتة ، ولهذا فهى تستحق وضعها موضع الاعتبار والتمسك بها بجدية ، أى تمتلك الثورة المعقولية لأنها تحب الحق وتقول الصدق ويتطابق فعلها مع صدقها ، فأساس المعقوليةهنا هو خبرة وثقة تلك الجماعات عند التعامل فيما بينهم وبين الثورة . أى أن الثورة تبلغ أعلى درجات تأثيرها بسبب أن هناك إعادة تنظيم لمفاهيم بناء الجماعات على أساس نتائج العلاقات المتبادلة بينهم وبين الثورة . وهكذا تصبح استجابة تلك الجماعات للثورة فى أعلى درجاتها لأنها أخذت معنى جديداً ، بما أن العلاقات بين مختلف الوسائل والأهداف أعيد بنائها ، فإنها تنبعث على أنها الأسلوب المفضل للفعل نابعة من قيم الجماعة نفسها .

أما جماهير الشعب من العمال والفلاحين الذين قبل الثورة كانت مكانتهم

لا تتفق مع أدوارهم فى المجتمع ، وصنعت الأيديولوجية لديهم تصورات جمعية جديدة عن مكانتهم وأهمية أدوارهم فى المجتمع . ومن ثم فالثورة عندهم قد عرفتهم ذاتهم وتصبح العلاقة بينهم وبين الثورة علاقة تعريف الذات ومشبعة . وأعنى بعلاقة تعريف الذات ، علاقة تؤدى دوراً فى تشكيل جزء من تصورات الشخص عن نفسه . ومن ثم يصبح تأثير الثورة عن طريق المحافظة على تلك العلاقة المشبعة . تلك العلاقة التى تحاول فيها الجماعات أن تقيمها أو تحافظ عليها قد تأخذ أشكالا مختلفة . فقد تأخذ شكل علاقة فيها يضطلع العمال والفلاحين بجزء من دور فاعل التأثير أى الثورة . وعلى قدر وجود هذه العلاقة ، تحدد تلك الجماعات أدوارها فى مفاهيم من دور الثورة. فهم يميلون أن يشابهوا الثوار ، أو أن يكونوا مطابقين تماماً للثوار ، بأن يقولوا ما تقوله الثورة ويفعلوا ما تفعله ويعتقدوا ما تعتقده .

وتحتفظ تلك الجماعات بهذه العلاقة . وبإشباع إثبات الذات الذى تقدمه . فالثورة التى يكون لها هذا الوضع الجذاب لمثل هذه العلاقة تشغل دوراً مرغوباً عند تلك الجماعات ، أى أن الثورة تملك تلك المميزات التى تفتقر إليها تلك الجماعات ، مثل الضبط والقدرة على قهر الطبقات المستغلة للعمال والفلاحين ، تلك المواقف التى كانت هذه الجماعات تشعر فيها بالعجز .

وقد تأخذ العلاقة بين تلك الجماعات العمال والفلاحين — وبين الثورة دور العلاقات المتبادلة ، بمعنى العلاقة التى فيها أدوار الثورة وأدوارهم محددة من جهة كل منهما للآخر . وقد تستغرق تلك الجماعات فى علاقات متبادلة مع الثورة كما فى علاقة الصداقة بين اثنين من الناس . أو قد تشغل دوراً اجتماعياً محدداً من جهة الثورة ، أى دور متبادل ، مثل العلاقة بين المريض والطبيب . ويمكن المحافظة على الدور المتبادل إذا كان الممارسون ، أى العمال والفلاحون والثورة لديهم بالتبادل توقعات مشتركة عن سلوك كل

منهما نحو الآخر . وهكذا إذا وجد العمال والفلاحون علاقة مشبعة بينهم وبين الثورة ، فإنهم يميلون إلى السلوك بطريقة معينة ليقابلوا توقعات الثورة ، أى أنهم يميلون إلى السلوك فى خط مع متطلبات العلاقة بينهم وبين الثورة .

ويلاحظ ، وتلك مسألة هامة ، أن هذا يكون صادقا ، بغض النظر ، سواء أكانت الثورة ترى وتراقب تلك الجماعات أم لا . إنه شىء هام بالنسبة للمفهوم الذاتى للفرد أن يوفى توقعات أصدقائه . وهكذا يحدث قبول التأثير عندما ترى تلك الجماعات سلوك الثورة مناسباً ومطاوباً لهم عن طريق علاقة دور متبادل تشارك فيه تلك الجماعات . فهم يستقون القوة ومعنى لذاتهم من تعريف ذاتهم كجزء من الثورة . وهم يسلكون هذا المسلك مع الثورة لا بسبب محتوياتها ولكن لأنها مشبعة فى ذاتها .

وليس معنى هذا أنهم لا يعتقدون فى مبادىء الثورة ؛ ولكنهم يعتقدون فعلا فى الآراء والأفعال التى يستعملونها . ومن ثم يكون السلوك مقبولا عامة وخاصة ، وإظهاره لا يعتمد على الشهود من جانب الثورة . ولكنه يعتمد على الدور الذى يأخذه أى فرد فى أى لحظة فى أى وقت . وتركز تلك الجماعات انتباهها على موافقة سلوكهم لتوقعات الثورة منهم فى إنجاز أدوارهم . وهكذا تظل الآراء المستعملة مرتبطة بالمنبع الخارجى أى بالثورة ، وتعتمد عليها ، أى على مددها الاجتماعى . كما أن تلك الآراء المستعملة لا تتكامل مع نظام قيم تلك الجماعات ، ولكنها بالأحرى تميل لأن تكون معزولة عن بقية قيمهم وتظل قيمهم متحرصلة ، إذ تحتاج لمدة طويلة لتتطابق مع محتوى الثورة .

أما جماعات أصحاب المصالح المكتسبة فى النظام القديم قبل الثورة ، وهم الذين كانت لهم ارتباطات مصلحية مع الطبقة الحاكمة وعن طريق هذا الارتباط كانوا يحققون مصالحهم بغض النظر عن مصالح الشعب بل وعلى

حسابه ، أى أن أهدافهم والنظم الاجتماعية القديمة كانت متشابكة ، ولم يكن هناك تخلف ، أو على الأقل ، أدنى تخلف بين تطلعاتهم من ناحية ووسائل تحقيقها من ناحية أخرى ، أى أن أهدافهم الثقافية متشابكة جداً مع الوسائل النظامية لإنجاز هذه الأهداف .

فهؤلاء ينظرون إلى الثورة بعين الارتياب ، بمعنى الشك فيما إذا كانوا سيحصلون على نفس الفوائد التى كانوا يجنونها من النظام السابق ، بمعنى هل التغير سيحدث فجوة بين تطلعاتهم وبين الأساليب النظامية لإنجازها ، ومقدار هذه الفجوة ؟ ومن ثم لا يظهرون عدائهم السافر ولكن يميل سلوكهم إلى تجنب عداء الثورة بصفتها الضابطة ، وهم فى نفس الوقت يأملون فى الوصول إلى أهدافهم ، أى تحقيق مصالحهم من خلال الثورة ، فهم يسلكون سلوكا معبراً عن الآراء المتطابقة مع الثورة بغية الحصول على رضاها أو الدخول والتسلل بين جماعاتها . فهم يهتمون بالحصول على تأييد الثورة أو تجنب عدم تأييدها لهم . فهم يحاولون أن يقولوا الأشياء المتوقعة فى كل المواقف ويفرحون كل واحد يحتكون به ، بسبب الحاجة إلى استجابات محببة من الآخرين ذات نوع مباشر وسريع . ومن ثم فى كل حادثة يفعلون ما تريده الثورة أن يفعلوه ، أو يفعلون مايظنون أن الثورة تريد أن يفعلوه . لأنهم يرون فى ذلك طريقاً للحصول على استجابة مرضية ، فهم يستعملون سلوك الثورة لا لأنهم يعتقدون فى محتواه ، ولكن لأنه أداة فى إنتاج تأثير اجتماعى مقبول ، فهم يحافظون على فعل الأشياء المتوقعة فى مواقف معينة ، بغض النظر عما تكون عليه معتقداتهم الخاصة . والمهم جداً أنهم يسلكون هذا السلوك فقط عندما يشعرون أن الثورة تراهم ، إذ أنهم يشعرون أن الثور تمتلك وسائل الضبط وفى استطاعتها هدم مصالحهم . ومن ثم يتناسب مدى إذعانهم للثورة طردياً مع قدرة الثورة على الضبط .

كما أن النظم الاجتماعية التى تريد الثورة القضاء عليها لا تتوقف عن العمل بمجرد قيام الثورة ، فهى ليست مجرد خاتم فى أصبع المجتمع تخلعه الثورة عند تولى السلطة . ولكن النظم الاجتماعية المؤسسة فى المجتمع تعتبر من أشد عوامل المقاومة للتغير ، وخاصة أن هجمات أيديولوجية الثورة أثناء نمو الحركة لا تكون قد أتمت الإجهاز عليها ، ومن ثم فهناك جزء كبير من المجتمع ما زال يمارسها ويتمسك بها ، ولا يرى ضرراً فى استمرارها ، وخاصة أنه لم تتضح لهم بعد فائدة البدائل التى تنادى بها أيديولوجية الثورة ، بل ويشك فيها وفى قدرتها على الاشباع ، ومن ثم تظل النظم القديمة مناوئة للحركة الثورية ، تأبى التغير وتتشبث بوجودها الاجتماعى ويدعمها ما ارتبط بها من عادات اجتماعية وتقاليد وقيم ، وهى التى تكمن فى ضمائر الأفراد ، وهى التى تنظم علاقاتهم الاجتماعية ، والتى اعتادوا استخدامها فى مناشطهم اليومية ، فهى تجرى مجرى الدم من عروق المجتمع ، أى جماعاته وأعضائه ، ومن ثم ينشأ صراع مرير بين النظم الاجتماعية الجديدة التى يراد إرسائها والنظم الاجتماعية القائمة فعلا فى المجتمع ، والتى لم ينهار منها عند قيام الثورة إلا النظام السياسى وربما الاقتصادى .

أما جماعة الثوار أنفسهم الذين كانت آراؤهم متفقة على هدم الحكومة وتحطيم النظم الاجتماعية التى تتعارض مع أيديولوجيتهم ، هذا الاتفاق يبتدىء فى التفكك عند تولى السلطة ، حيث تختلف الآراء حول أساليب العمل للوصول إلى أهداف الثورة النهائية فيتخذ كل فريق منهم أسلوباً خاصاً يعتقد أنه الأصوب فى الوصول إلى أهداف الثورة . بل قد يصل الشقاق إلى حد محاولة كل فريق استخدام أساليب خاصة فى التفكير والعمل للوصول إلى الأهداف ، يؤدى فى كثير من الأحيان إلى تحريف أيديولوجية الثورة التى أعلنت قبل تولى السلطة .

وأشد أنواع الآفات الاجتماعية التي تصيب جماعة الثوار أنفسهم وتؤدى إلى تحول الصراع الأساسى بين الثورة والنظم البالية ، (إلى ذلك الصراع بين مبادىء الحركة والإغراء لأعضائها باستخدام إدارتهم للمجتمع لإشباع حاجاتهم المكبوتة التى بعضها بالدقة حاجات التطابق مع أنماط المجتمع القديم الذى حاولوا إزالته)[1] .

وأخيراً الطبقة الحاكمة سابقاً ، أى التى كانت فى مراكز القوة السياسية والاقتصادية التى أزالت الثورة مراكزهم . هذه الطبقة لا يعنى أن نجاح الثورة قد قضى على كل نفوذها . فإن هذه الطبقة تظل مسيطرة على بعض المصادر الاقتصادية وبعض مصادر النفوذ السياسى ، ذلك لأن أثر الثروة والجاه والسلطة والتقاليد والعلاقات الشخصية ونظرة الناس إليهم ، لا تمحى بمجرد قيام الثورة بل تستمر بحكم القصور الذاتى .

وغنى عن البيان أن أى عملية للتغير تلازمها بالضرورة عملية مقاومة ، وتستغل تلك الطبقة التى أجهزت الثورة على مراكزها ، عوامل المقاومة التى تكمن فى مقامة النظم الاجتماعية والتقاليد والأعراف والقيم ، والجماعات التى هددت الثورة مصالحهم المكتسبة ، أو الذين يشعرون أن مصالحهم فى سبيل التهديد ، وكذلك تلك الجماعات التى لا تتوقع من الثورة فوائد ومنافع مادية ، وتلك الجماعات التى كانت تتوقع منافع عند قيام الثورة ثم لم تتحقق أطماعهم وكذلك بعض الفرق المنشقة على الثورة . كل هذه الجماعات تعمل الطبقة الحاكمة المعزولة على كسب ولائهم بشتى الوسائل والأساليب الشريفة وغير الشريفة لاستغلالهم لإعادة مصالحهم الطبقية . وهذه الحركة هى ما يسميها علماء الاجتماع بالثورة المضادة Counter-revolution

---

(١) Parsons : op. cit, P. 527

(أى ثورة يصاحبها حركة ثورة مضادة)[١]. والثورة المضادة هى أيضاً عملية تغيير ، إذ أنها تبغى تغيير المجتمع الثورى وأيديولوجيته التى حطمت مصالحهم . والثورة المضادة ولو أنه ينفذها الطبقة التى أزالت الثورة مراكزهم فى المجتمع ، فإنه فى الحقيقة لا ينفذها نفس الطبقة الاجتماعية ، لأن المراكز الاجتماعية للثوار المضادين قد تغيرت بعد الثورة ، فمن طبقة ارستقراطية محصنة تماماً وأتباعهم ، تحولوا إلى طبقات منبوذة سياسياً وحتى اجتماعياً ، ومنبوذين اقتصادياً يعيشون حياة غير مطمئنة ، بل ويعتمدون حتى على العمل فى خدمة القوة السياسية الجديدة ، وحتى مستويات قيمهم تميل إلى التغير .

(إن هذه المحاولة لا تنجح إلا نادراً)[٢] ، إذا حدث ونجحت هذه الثورة المضادة ، فنجاحها دليل على قوة وغلبة الطبقة ذات المصالح فى العهد القديم ، ولا يعنى ذلك إمكانية إرجاع عهد ما قبل الثورة . ذلك أن قادة الثورة المضادة يضطرون إلى استعارة كثير من الآراء ، وإلى مجاراة الكثير من الأوضاع الثورية ، وإلى صبغ مشاريعهم ومناهجهم ومقترحاتهم بلون ثورى ، لتنسجم مع المحيط الاجتماعى الثائر . ذلك يرجع إلى حاجتهم إلى العون والمدد من الطبقات الأخرى التى استهوتهم الثورة .

ومن ثم فإن أيديولوجية الثورة المضاده تتوحد مع أفكار معينة مستعارة من الثورة ، ونادراً ما تقترح عوده كاملة إلى ما كان عليه الحال قبل الثورة ، لأن ذلك لا يتلاءم مع الوسط الاجتماعى الذى انتشرت فيه الآراء الثورية التى تهاجم الماضى وتكشف عما فيه من مآس ومظالم اجتماعية ، ومن ثم أصبح كريهاً لدى أعضاء المجتمع ، كما أنها لا تستطيع أن تتبنى منهجاً ثورياً خالصاً

---

(١) Hederl : op. cit. P. 370

(٢) Meusel : op. cit., P. 398

لأن فى ذلك خروجاً على مصالح القائمين بها ورسالتهم المعبرة عن مصالحهم الطبقية . كما أن الثورة المضادة ، ولو أنها ابتدأت كثورة مضادة ، قد تخرج عن سيطرة القائمين بها وتتحول إلى ثورة حقيقية . هذه الاختلافات فى مسار الثورة المضادة ترجع إلى ضخامة عدد المتغيرات التى تدخل فى هذه العملية ، مما قد يؤدى إلى نتائج لم تكن متوقعة عند القائمين بالثورة المضادة .

أما **المشاكل الخارجية** ، فتتمثل فى علاقات المجتمع الذى قامت فيه الثورة مع سائر المجتمعات المحيطة به . فتغير أيديولوجية مجتمع ما يقتضى بالضرورة تغير العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية مع سائر المجتمعات . وخاصة أن وسائل الاتصالات فى العصر الحديث جعلت من ثورات هذا العصر ذات أثر بالغ على مساحات واسعة قد تمتد لتتعدى القارة التى بها المجتمع الثائر إلى قارات العالم أجمع . ففى عالم الراديو والتليفزيون ، فإن الإنسان يستطيع أن يكتسب كل عادات مجتمعه ولكن بالإضافة إلى ذلك يستطيع أن يحصل على خبرات وأفكار مجتمعات أخرى بعيدة عنه جداً ويتأثر بها . هذه الحقيقة تجعل المجتمعات ذات الأيديولوجيات المضادة تتوجس خيفة من هذه الثورة . فإن كانت الثورة حدثت فى مجتمع بعيد عنها ، إلا أنها تشعر بوطأتها على مجتمعها ونظمه ، وتجد صداها فى أسلوب بعض أعضائها فى التفكير والعمل ، ومن ثم تنهض للدفاع عن معتقداتها بمحاولة توجيه ضربات إلى تلك الثوره . ذلك بالإضافة إلى المجتمعات التى كانت لها مصالح مكتسبة مع الطبقة التى أزالتها الثورة ، أو كانت لهم معها ارتباطات سواء سياسية أو اقتصادية .

وهكذا تجد الثورة حرباً تشن عليها من الخارج تبتدىء من الحرب الإعلامية عن طريق الصحافة والإذاعة فى مصارعة فكرية لهدم أيديولوجية الثورة وإبطال فعاليتها فى مجتمع الثورة ، إلى الحرب الاقتصادية بكل ألوانها بل قد تتطور هذه الحرب من فكرية واقتصادية إلى عدوان مسلح كما حدث فى الثورة الفرنسية عندما تزعم مترنخ رئيس وزراء الإمبراطورية النمساوية

حينذاك ، حلفاء أوربيا عسكرياً لمحاربة الثورة الفرنسية ، وكما حدث للثورة المصرية من مهاجمة انجلترا وفرنسا وإسرائيل سنة ١٩٥٦ ، وما حدث من أمريكا وإسرائيل سنة ١٩٦٧ .

(و) الثورة فى مراكز السيادة :

ذلك هو المناخ الاجتماعى الذى يحيط بالثورة عند توليها سلطة الضبط فى المجتمع . ولما كانت الثورة تبغى تغيراً ليس جزئياً ولكن كلياً يشمل البناء الاجتماعى كله . ومن ثم فبقدر كمية التغير المراد إجرائه فى المجتمع تكون شدة المقاومة .

هذا المناخ الاجتماعى المشحون بعوامل المقاومة . هو الذى دعى كثير من علماء الاجتماع الذين توفروا على دراسة الثورات . الاعتقاد بأن الحكومة الأولى للثورة تفشل لأنها تتميز بالاعتدال ، فيذكر فارس أنه (لابد للقواد للثوريين أن ينظموا السياسة ويحفظوا النظام . ولا بد لهم أن يجمعوا ضرائب ويباشروا أموراً أخرى . هنالك يبدو شيئاً من الميل نحو الثورية المعتدلة نسبياً لتباشر الضبط لوقت ما ، ولكن النقص فى الجرأة والقرارات تؤجل إدارة الوظائف الأكثر تطرفاً)[1] . ويذكر ميرل أنه (مباشره بعد سقوط الحكومة القديمة . عادة يضطلع بالحكومة المعتدلين فى الحركة الثورية . هذه العناصر معارضة للأسطورة القديمة وبنائها النظامى ولكن لا يكونوا قد أجروا تماماً التغيرات الرئيسية المتضمنة فى الأسطورة الجديدة . ويحاول المعتدلون إصلاح البناء التقليدى . دون أن يعرفوا أن مجهوداتهم سوف لا ترضى سواء المحافظين المؤيدين للنظام القديم . ولا المتطرفين المطالبين بالجديد . ويرغب المعتدلون فى تغيير البناء الاجتماعى بنسبة معينة .

---

(١) Farls, op, cit., p. 605

وفى نفس الوقت تجنب تزايد التطرف . وينتهى المعتدلون بعدم إرضاء الزمرتين . وسريعاً ما يزاحون من السلطة . فلا يؤيدهم المتطرفون أو الثورة المضاد حكم المعتدلين هو بالضروره قصير)[1].

واعتقد بعض علماء الاجتماع ان ذلك الفشل هو الذى جعل حكومة الرعب تتلو حكومة المعتدلين . وذهب فريق آخر إلى أن ما يجعل حكومة الرعب تتلو الحكومة المعتدلة ، هو عدم قدرة الأخيرة على مقاومة الثورة المضادة ، (إنه (إنه تهديد الثورة المضادة الذى يقود إلى الرعب)[2].

وفى الحقيقة تلك الأسباب تمثل جانباً من الحقيقة الكبرى وهى أن الثورة تبغى تغيراً فى كل نظم المجتمع وقيمه وتقاليده وعاداته ، ومراكز جماعاته وأدوارهم وتغيراً فى كل نسق التمايز الطبقى . ومن ثم فعملية المقاومة المنبعثة تكون أقوى من أن تقاوم بمجرد التشريعات والقوانين التى تصدرها حكومة الثورة الأولى. وخاصة لأن أحد المبادىء الهامة التى عادة تتضمنها أيديولوجية الثورة هى الحرية ، ليس فقط للطبقات التى كانت مهضومة الحقوق ، أو الجماعات المؤيدة للثورة ، ولكن لكل أعضاء المجتمع. (فى الجزء المبكر للثورة هناك بالتأكيد توقع واسع المدى أن الناس الآن على الأقل أحرار ، وانهم يستطيعون تماماً أن يفعلوا ما يسرهم)[3] . وهكذا يكون لكل أعضاء المجتمع الحرية فى النقد و إصدار الأحكام على مجريات الأمور ، ولكن هذه الأحكام عادة تكون صادرة من خلال معتقداتهم وقيمهم وتصوراتهم الجمعية القديمة ، إذ أن أيديولوجية الثورة وما أتت به من نظم ومعايير لم يتمثلها

---

(١) Merril, op. cit., P. 498

(٢) Heberl op. cit,, p 370

(٣) Parsons, op cit , p 530

بعد كل المجتمع بالقدر الكافى الذى يجعل من أحكامهم فى توائم من النسق الجديد .

فإذا أضفنا إلى ذلك محاولة الثوار الحقيقيين ضبط أعداء الثورة ،ورقابة بعض أعضاء الثورة الذين يحاولون استغلال إدارتهم للمجتمع ، ومن مراكز القوة التى عهدت إليهم بها الثورة لإشباع رغباتهم المكبوتة فى الاستعلاء وخلق طبقة أرستقراطية جديدة تشبهاً بالقديمة التى كانت تشرئب إليها نفوسهم وهم خارج الحكم ، والتى يحاولون تحقيقها تحت ستار الثورية .

والثوره المضادة تراقب ذلك كله وتحاول استغلال كل هذه الظروف ، وهى كحركة اجتماعية أيضاً تحاول إثارة الشعب وتهييجه بالكشف عن نقائص الثورة وانحرافات بعض أعضائها،وتنمى من ذلك كله أيديولوجية لها مضادة تهدد الثورة بالفشل والثوار بالموت .

ومن ثم يضخم الجناح المتطرف هذا التهديد بحيث يبدو واضحاً للثوار أن مبدأ الحرية ومحاولة تغيير المجتمع عن طريق مجرد التشريعات سوف يؤدى إلى فشل الثورة ، ومن ثم تنتج آراء الجناح المتطرف بل وقد ينجحوا فى تحويل كثير من المعتدلين إلى الاعتقاد فى صحة التطرف .

وهكذا تجد الثوره الظروف الاجتماعية المحيطة بها إلى عهد من الرعب لتأمين الثورة وتأمين حياة أعضائها . فالجماعة الحاكمة الجديدة إذا فى موقف لا يؤمن له ، السلطة التشريعية أو التقليدية للنظام القديم قد دمرت ، الاحترام العام للقانون قد اهتز ، كثير من القيم الاجتماعية فى تحول ، وسلطة النظام الجديد لم تؤسس بعد فى معتقدات الناس واتجاهتهم .ولهذا فإن الجماعة الحاكمة الجديدة وخاصة الجناح المتطرف يروج لفكرة أنه لا يمكن أن تحافظ على نفسها إلا بالقوة ، وأن القوة إذا لم تقبل كأمر شرعى ، فإن المعارضة والمقاومة التى تتولد عن ذلك يمكن تحطيمها بمزيد من القوة أو التهديد بالقوة.

وهكذا تلجأ الثورة إلى تغيير النظم الاجتماعية وإحلال أيديولوجيتها ونظمها الجديدة عن طريق القهر ، وأن تلزم أعضاء المجتمع بالتوائم مع أيديولوجيتها والسلوك طبقاً لمحتوياتها، وإحاطة ذلك كله بسياج عال ومتعسف ، من الجزاءات الاجتماعية المادية واللامادية . وبقدر مدى قيام قوة الثورة على وسائل الضبط فإن التأثير يميل إلى الإذعان ، أى أن الثورة تلجأ إلى تحديد الأدوار وتمنع عمليات الاختيار . ومن ثم يكون أفراد المجتمع مضغوطاً عليهم داخل الاستجابة المؤثرة ، فليس هناك استجابات بديلة . وهكذا يصبح تأثير الثورة فى عملية التغيير فى أعلى درجاته ، ذلك لأن الدور الذى حددته لأعضاء المجتمع يصبح هو الاستجابة الوحيدة المسموح بها ، فالفرد والجماعة ترى نفسها لا خيار لها وأنها مقيدة بهذا الاختيار المعين .

وهكذا تجد الثورة نفسها مساقة إلى عهد الرعب ليذعن الأعضاء المتمردون وأولئك المتأرجحون بين القديم والجديد ، وكذلك أعضائها الذين أغرتهم مراكزهم الجديدة بمحاولة استغلالها لتحقيق مطامعهم . ويبتدىء عهد الرعب بدكتاتور .

والرعب ليس بالضرورة وقت اضطراب ولكن ضبط محكم بالقوة . إذ تكون الحكومة الثورية فى خطر من الفشل ، نظراً لمهاجمتها من عدة اتجاهات مختلفة فمن انتقام المعتدلين المطرودين إلى قوى الثورة المضادة ، وكذلك التدخل الأجنبى ، وخاصة أن الثوار المتطرفين عادة ينقصهم الخبرات العادية فى الحكم . إذ أنهم غالباً يمارسونه لأول مرة فى حياتهم ، ورغم ذلك عليهم أن ينجحوا فى إدارة دفة البلاد من أجل إنقاذ حياتهم على الأقل . ومن ثم تصبح القسوة والقوة ضروريات حيوية ، ولكن لا بد أن ترتكز على العدالة والمساواة وإلا تحطم الثورة نفسها وتقضى على تأييد المجتمع لها وخاصة جماعة المثقفين .

وإلى مدى كبير يكون عصر الرعب مرحلة مقصودة ، إذا أنها تعتبر كميكانزم درامى للادارة بواسطة الخوف . (فيصاحب حكم الرعب دعاية تؤكد مصير أولئك الذين لايتعاونون مع النظام الجديد ، كما يوضح اسمها ، الغرض من الرعب هو الإرعاب والتخويف)[١] . (فيستخدم الحكام المتطرفون أكثر العبارات رعباً وتهديداً فى خطب لا حصر لها ، خطبهم التى لا تنتهى ، يكثر فيها أكثر التصريحات تخويفاً من الخطر المميت الذى سوف يلاقيه أى فرد لا يطيع أو يثور على الحكومة الحاضرة . ويخلق الثوار تأثيراً بعناية ودقة أن كل فرد مراقب وأن أقل حركة عدائية تعنى الموت فى الحال . ونشر الأشاعات المرعبة عن علمهم بكل شىء وانتقامهم لأنفسهم ويديرها صناعياً الحكام المتطرفين من خلال هيئة الأتباع المخلصين ، ولكى تكون الخطة ناجحة تتطلب إثبات كل هذه الإنذارات الخطابية بعدد معين من الإعدام الدرامى ، ينفذ بطريقة معينة لإعطاء الانطباع أنها أضخم بكثير من حقيقة الحالة)[٢]

وقد تقصر أو تطول فترة الرعب حسب الظروف الاجتماعية المحيطة بالثورة ، ومن ناحية أخرى حسب مقدرة حكومة الثورة على إسكات الجماعات المؤيدة للنظم القديمة . وإحباط محاولات الثورة المضادة وضرب تجمعاتها . (ولكن من الصعب افتراض أن هذا الاتجاه يمكن أن يحفظ عند أى معدل بدون جهد وافر وجسيم فى كل من اهتمامات ضبط أعضائها نفسها فى ميلهم إلى الارتداد ، وفى الاهتمام باستخدام السكان اللاثوريين)[٣] . ومن ومن ثم لا يمكن حفظ التوتر الشعبى فى أعلى ذروته إلى مالا نهاية ، إذ أن عهد الرعب يضفى على المسرح الاجتماعى صورة دموية مظلمة وكئيبة جداً

---

(١) Merrill: op cit, P. 468

(٢) Edwards : op. cit, P. 176

(٣) Parsons; op cit, P. 528

قد تؤدى إلى فقد الجماهير الملتفة حول الثورة الثقة فيما وعدت به من الحرية والعدالة ، إذ أن التفسيرات والتبريرات التى تقدم فى بدء مرحلة الرعب عن شرعية هذا الأسلوب تجد لها صدى عند الجماهير التى ما زالت مثارة جميعاً ضد النظم السابقة ، فتتقبلها .

ولكن بعد فترة زمنية تهدأ عوامل الإثارة ، ومن ثم تصبح لدى الجماهير فرصة مناقشة هذه التبريرات عن شرعية الرعب من أجل الوصول للأهداف ، والتساؤل عن الوعود بإنهاء هذه الإجراءات .

وخاصة أن الثورة كحركة قبل تولها السلطة فى المجتمع كانت تعتمد على التأييد الاختيارى ، وكان ينضم إلى صفوفها المتبرمون من النظم القديمة واشرأبوا إلى التجديد والحرية . ورأوا فى الثورة تحقيقاً لآمالهم وتطلعاتهم هذه الصورة للثورة تختلف تماماً عن صورة الثورة عندما تصبح فى مراكز سلطة الإدارة فى المجتمع ، فلم تعد تحتاج بعد إلى التأييد الاختيارى ، بل وسيلتها أصبحت الجبر والإذعان . وكذلك كانت الثورة وهى خارج الحكم ، كحركة ، تميل إلى تنشئة أعضائها بأساليب تتفق وأهداف الحركة ، وهى إثارة الجماهير ضد النظم القائمة . وهى الآن تريد تنشئتهم بأسلوب آخر يختلف تماماً عن الأسلوب السابق ، إذ أن مهمتها الآن أن تنشىء أعضاء المجتمع بما يجعلهم منسجمين مع نظمها الجديدة .

فأيديولوجية الثورة قد وضعت الآن موضع التطبيق . وهذه النقطة تعتبر من أهم اللمسات فى الصوره الجديدة للثورة ، ألا وهى أن وضع النظم الجديدة موضع التطبيق لا يعنى إطلاقاً أنها ستجد فراغاً فتملأه ، ولكن ستجد نظماً وتقاليداً وأعرافاً مستقرة فى المجتمع منذ أمد . ومن ثم يحدث التفاعل بين هذه النظم والأيديولوجية الجديدة . وتكافح الثورة كفاحاً مريراً لكى تجعل نتيجة هذا التفاعل تميل نحو الأيديولوجية الأصلية السابق إعلانها ،

ولكن مهما بذلت الثورة من جهد فلن تستطيع أن تجعل النتيجة هى تطبيق نفس الأيديولوجية التى أعلنتها حرفياً ، ومن ثم يحدث تحريف لهذه الأيديولوجية ذلك لا يعنى بالطبع (أن الحركة الثورية لم تقدم تغيرات أساسية على الإطلاق. ولكنها تعنى أن هذه الحركات خاضعة لديناميكية عملية النمو . إنها تعنى بوضوح أن لا حركة ثورية تستطيع إعادة بناء مجتمع طبقاً للقيم المصاغة فى أيديولوجيتها بدون قيد)[1] .

ومن ثم تخف حدة الرعب تدريجياً ، ويتزايد اتجاه الثورة إلى إعادة التوازن للمجتمع وإلى عملية البناء مستغلة فى ذلك حماس الشعب فى إجراء التغيرات الجذرية ، ومن ناحية أخرى تنفيذ بعض المنجزات التى ما كان يمكن أن ينجزها المجتمع وهو فى حالته العادية ، ولكن الحماس الذى يتملك الجماهير المنتصرة بوضع الثورة فى الحكم ، والأمل فيما تعدهم به الأسطورة الجديدة من آمال عريضة لهم ولأبنائهم ، يدفعهم لتحمل أشد الصعاب ، ومن ثم يتم بعض المنجزات التى تعتبر معجزات بالنسبة للظروف العادية .

ذلك مسلك الثورة فى الحكم ولكن ليس معنى هذا أن كل ثورة بالضرورة تتخذ هذا المسلك من حكومة معتدلة إلى عهد من الرعب ثم عودة إلى البناء ، ولكن قد تبتدىء الثورة بحكومة من الرعب وقد لا تحتاج إطلاقاً إلى عهد من الرعب . ورغم أن بعض هذه الحقائق مستفادة من دراسة الثورات الكبرى فى التاريخ ، ولكن تبقى الحقيقة الاجتماعية ، وهى أن كل ثورة كأى ظاهرة اجتماعية ما هى إلا نتيجة لتفاعل عوامل عديدة ، والثورة بالذات ظاهرة معقدة إلى أبعد حدود التعقيد ، مما يجعلها متفردة فى مسارها طبقاً للظروف الاجتماعية التى تنبثق عنها والتى تحيط بها عند انتصارها .

---

(١) Ib id. P. 529

وغنى عن البيان أن اختلاف أى عامل من العوامل، وخاصة عامل الزمن، يؤدى إلى تغيير جذرى لثورة عن الأخرى . فثورة تنشأ فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، تختلف تماماً عن ثورة فى نفس المجتمع فى القرن العشرين . حيث أدخل عامل الزمن متغيرات لا حصر لها ، من اتصالات جمعية تربط المجتمع بسائر مجتمعات العالم ، ووسائل مواصلات أسرع من الصوت تربط المجتمع بسائر مجتمعات العالم ، مما أدى إلى تغير أساليب التفكير والعمل فى ذلك المجتمع عما كانت عليه فى القرن الثامن عشر ، وكذلك الظروف الاجتماعية من سياسية واقتصادية المحيطة بها تختلف تماماً عن تلك الظروف منذ قرنين .

فإن كان كذلك بالنسبة لمجتمع واحد بذاته، فواضح أن حدة الاختلافات تتزايد إذا اختلفت المجتمعات ، لأن لكل مجتمع عاداته وتقاليده وقيمه التى تشكل بتفاعلها مع الظروف المحيطة المجتمع وتطوره ، تصورات جمعية تختلف عن المجتمعات الأخرى ، ومن ثم يختلف مسار الثورة اختلافاً شديداً باختلاف المجتمعات والزمان .

(ز) النتيجة :

وبالمثل النتائج التى تؤدى إليها ثورة ما تختلف اختلافاً جذرياً باختلاف المجتمعات ، ومدى رسوخ النظم الاجتماعية المتعدية عليها الثورة، فقد يحدث أن تقوم ثورة فى مجتمع ثم يرى أن النظم الاجتماعية التى نتجت عنها ما هى إلا تعديلا للنظم القديمة ، أى أن التفاعل بين القديم والجديد لم يؤد إلا إلى تغيرات طفيفة . وهذا يدل على مدى رسوخ هذه النظم فى بيئة المجتمع .

وقد تؤدى ثورة إلى تغيرات تامة لكل النظم حتى لا يظهر إلا آثار محدودة جداً من النظم القديمة كالثورة الإسلامية فى جزيرة العرب .

وقد تؤدى أيضاً ثورة إلى تغيرات بعيدة المدى فى النظم الموجودة ، ولكن بعد فترة زمنية تطول أو تقصر ، تعود مرة ثانية النظم القديمة إلى

الظهور ، مما يدل على أن النظم الجديدة فشلت فى إزاحة النظم القديمة وأن الجماهير بعد الممارسة وجدت أن النظم القديمة أكثر إشباعاً من النظم الجديدة . وهذا ما دعى بعض علماء الاجتماع إلى الاعتقاد بأن الثورة لها مدار دائرى تعود من حيث بدأت مثل سوروكن . ولكن الحقيقة تكمن فى أن بعض الاتجاهات الأساسية وحتى السمات النظامية المنغرسة بعمق فى ثقافة شعب يبدو أنها تبقى رغم أكثر الثورات جذرياً . (فى حالة الثورة الفرنسية الانفعال النفسانى الذى أطلق على عنانه دمر كل النظام الاجتماعى ، وجرف كل النظم وحتى دمر كل المعايير الموروثة . وأنه من الثابت أن هذا الأخير هو ما هدفت إليه الثورة أخيراً . النظام القديم أصبح بعنى كل ما صنعه المجتمع القديم بشرائعه ومستوياته وأفكاره عن الحقوق والصواب والخطأ وكل شىء . والثوار أيضاً عملوا على اختراع معايير جديدة ومستويات جديدة ، ومفاهيم جديدة عن الأشياء المرغوبة اجتماعياً ، ودين جديد ، وآراء جديدة عن الواجب الوطنى والمسئولية . لقد كانت هناك فجوة بين القديم والجديد ، وكانت هناك فوضى فى المعايير ، حتى بعد إصلاح الآلة المدنية وعادت للعمل مرة ثانية . ولقد أعاد نابليون النظم وأشكال النظام الاجتماعى بقدرما كانت تبدو مستحسنة ومرغوبة لمصالحه الذاتية . . . . من النظام القديم يمكن أن نجد فى هذه الأيام فقط الخرائب والمخلفات الأثرية ومع ذلك المعايير القديمة عن العقائد الاجتماعية والأخلاق والحياة الاجتماعية السليمة ، والواجبات الدينية ، والفضيلة الأسرية هى تماماً ما كانت عليه قبل الانفجار الكبير)[1] .

---

(١) Sumner: op. cit, p. 167 - 168